قالت العصا . . وقال السيف

مركز النيل للدراسات الاستراتيجية

٢٣ شارع عبد الخالق ثروت - وسط البلد - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٣٩٢٤٢١٩ - ٢٣٩٢٤٢١٧

Email: <nile.center@hotmail.com>

http://nilecss.com

قالت العصا .. وقال السيف

د/إياد حرفوش

بطاقة الفهرسة

أحمد، إياد.

قالت العصا ..وقال السيف

إعداد: إياد أحمد هنداوي.

القاهرة- مركز النيل للدراسات الاستراتيجية،2014.

ص ، 10.5× 21 سم.

تدمك:0 - 12 - 5290 - 977.

رقم الإيداع: 2014/8919.

التاريخ: 2014/4/27.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2014

إهداء

إلى أبنائي «سيف الدين» و«سلمى»، وإلى كل «سيف» وكل «سلمى» بطول وطننا العربي وعرضه، أُهديكم هذه السلسلة من بطولات «أغلى الرجال». فليس في تاريخنا الضارب في عُمق الزمن، ما هو أغلى من هؤلاء الذين ينسفون ـ حتى بذكراهم ـ تخرصات الذين افتروا على شعبنا العربي أنه خانع، وأن أمتنا الهجيرة أمة الهزائم والنكسات!. لهؤلاء الذين ما هم منّا، وما نحن منهم، للمهزومين في عقر رجولتهم، والمنسحقين في صُلب كرامتهم، نقول: ربما لا يكون شعبنا أعظم شعوب الأرض، لكنه قدّم كل ما وَسِعه من تضحيات جِسام، نابَ عن شعبنا في تقديمها أغلى رجالنا، ممن قدموا أعمارهم قرابينًا لمستقبل جيلنا، وأجيال صاعرة آتية، بعدما نسج «أغلى الرجال»، بخيوط الدم والألم، طريقنا الصعب الذي تُظلله رايات النصر المنشود. إليكم، يا أغلى الناس، صفحات من سِفر بطولات أغلى الرجال، فخطاهم هي ـ وهي وحدها ـ المعالم الحقيقية على طريق المجد.

هذه السلسلة

منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، جرت أكبر حملة تشويه للوعي القومي عرفها شعب في تاريخ الإنسانية، حملةٌ كان هدفها أن تهزم شعبًا من داخله، بعد أن حار أعداؤه في كسره من خارجه، وفشلوا. جرت تلك الحملة هنا، على أرض مصر، حيث اتفقت مصلحة النظام وقتها، مع هوى أكبر فصائل المعارضة، فاجتهدوا جميعًا لتشويه تاريخ هذا الشعب الحديث والمعاصر.

أما النظام، فكان قد تبنى سياسة الانبطاح أمام الإرادة الأمريكية، ومن ثم الواقع الجديد لإسرائيل بوصفها دولة المحور في الشرق الأوسط. وصار من مصلحته بطبيعة الأمور أن ينسى الناس أيام مجد لم يتقادم بها العهد بعد. صار من مصلحته أن يتحول انتصار الشعب في 1956م إلى هزيمة، وأن يتحول انتصاره المجيد في 1973م إلى محاولة بطولية انتهت بمجرد تدخل أمريكا!! وأن تتحول هزيمة 1967م من هزيمة جولة إلى عقدة أبدية، وأن تتحول حرب 1948م ببطولاتها إلى «علقة» للجيوش العربية!!

كما صار من مصلحته أن ينسى هذا الشعب كيف قام بالثورة تلو الثورة في تاريخه الحديث، من ثورة 1805م، للثورة العربية بقياد «أحمد عرابي باشا» في 1881م، لثورة 1919م

بقيادة «سعد زغلول باشا» ورفاقه، وثورة يوليو 1952م. أربعة ثورات جرى تهميشها أو تشويهها، فصارت «هوجة عرابي»، و«انقلاب يوليو»، وصار الحديث عن خنوع المصريين وصناعتهم للفراعين حديثًا مقدسًا على موائد المثقفين قبل البسطاء. وتحول السؤال المنطقي وهو «متى يثور المصريون؟» إلى سؤال مرير هو «لماذا لا يثور المصريون؟»، كأن عدم ثورتهم على الظلم صار واقعًا نسعى لفهمه، وليس مرحلة نسعى لتغييرها!!!

هكذا اقتضت مصلحة النظام، أما أكبر فصائل المعارضة - أو التي يفترض أنها كانت معارضة - ممثلة في تيار اليمين الديني، من جماعة الإخوان ومن لفَّ لفَّها، فقد وافق هذا النهج من النظام هواهم، ولم يكن إسهام أقلامهم ومنابرهم في تشويه تاريخنا بأقل من إسهام النظام. فمن مصلحتهم أن يرى الناس تاريخهم كله من محنة إلى محنة، وأيامهم كلها من هزيمة إلى هزيمة، ومن انكسار إلى انكسار. ليصبح تيار «دولة الخلافة» عندهم هو المهدي المنتظر، الذي يستدعي لهم من التاريخ البعيد مجدًا، نفاه بنفسه عن التاريخ الحديث والمعاصر!

حتى جاءت ثورة 25 يناير، وبعدها ثورة 30 يونيو، وسقط نظام مبارك وبعده الإخوان، ليبدأ الشعب رحلة البحث عن ذاته، وتاريخ رجاله وأبطاله من جديد. فالتجربة قد فندت له ما درسه في المناهج الدراسية، وما قرأه من رفوف المكتبات على السواء.

وسلسلة «أغلى الرجال»، سنطالع فيها معًا قصصًا لرجال عاشوا بيننا في الماضي، فصنعوا حياتنا في الحاضر، أو بمعنى أدق، صنعوا أفضل وأنبل وأنظف ما فيها. ولو كانت تلك القصص في شقها الدرامي من خيال مؤلفها، فهي في شقها السياسي والعسكري والمعلوماتي تلتزم التاريخ، ولا تستلهمه فحسب. نكتب تاريخهم وبطولاتهم الواقعية التي فاقت الخيال، من أجلنا نكتبه وليس من أجلهم، ومن أجل مستقبلنا نقرأ فيهم ماضينا، فتلك القصص لن تعرفنا بهؤلاء الرجال وحسب، لكنها ستعيد تعريفنا من خلالهم بتاريخنا الحقيقي الذي تعمد الجميع وتعاون الجميع لتشويهه. والله من وراء القصد وبالله التوفيق.

القاهرة في خريف 2013م

المؤلف

(1)

يومٌ بكت فيه العصا

الزمان: 22 سبتمبر 1911م

المكان: 3 شارع محمد مظلوم، باب اللوق (موقع مقهى الحرية حاليًا)

أنا عصاه. أنا تلك العصا الغليظة من الخيزران، العصا التي رافقته منذ كان في الخامسة والخمسين من عمره، وألمت به آلام الركبتين. كنت معه في جزيرة «سيلان» في المحيط الهندي، في تلك الأيام الهادئة الحزينة التي عاشها، يتألم لفراق وطنه وبعاد أسرته وأولاده، لا يسلوهم حتى بعد أن تزوج من فتاة سيلانية طيبة، وأنجب منها ولدًا صغيرًا. تسعة عشر عامًا طويلة مرت عليه في المنفى كأنها دهر. قضى العشر سنوات الأولى منها في عزلة كاملة، فلم تسمح سلطات الاحتلال الإنجليزي لزائر أن يراه. ثم أَمِن المستعمر جانب الشيخ الفاني، فسمح بالزيارات، وراقبتُ وأنا في يده وفود الهنود المسلمين، والتي كانت تزوره عندما تقف مراكب الحجيج في سيلان للتزود بالمؤن والطعام، بعد أن ذاعت بينهم حقيقة نسبه الشريف، فهو الشريف الحسيني المنسب، من عترة رسول الله.

كذلك عشتُ معه الحقائق التي مهدت لعودته من منفاه كاملة، وقد يأتي وقت أحدثكم بوجه الحقيقة فيها، فقد كثرت حولها الأكاذيب بلا سند ولا بينة، لكن الأكاذيب الصاخبة أقوى من الحق خافت الصوت .. لسوء حظ البشر طبعًا!

كذلك عرفته وكأن شبابه يكاد يعود إليه وهو فوق الباخرة في رحلة العودة إلى مصر، بعد أن قبل الخديو «عباس حلمي» وساطة الوسطاء في أمره، كان يومها خفيف الحركة، فلم أشعر وأنا في يمناه بثقل جسده علي وهو في الستين من عمره. كنت أشعر في شرايين كفه التي تقبض علي بنشاط لم أعرفه طوال السنوات الماضية، فكأن قلب الشيخ الستيني يعود للشباب، يعود لحيويته وهو في الأربعين حين فارق مصر، ثم رأيته يكاد يثب من الباخرة فور ظهور الشاطئ المصري على مرمى البصر... لكنها فرحة ـ واحسرتاه ـ لم تدم طويلًا.

عرفت كل هذا، وكنت ألصق الأشياء به في تلك السنوات، وقد يأت وقت الحديث عن هذا كله، لكني اليوم أردت أن أحدثكم بحديث غير هذا، فقلبي اليوم حزين! نعم .. حزينة أنا، ولماذا تستنكرون على قلب الخيزران أن يحزن؟

حزينة أنا اليوم، ليس لأن العجوز الطيب فارقني إلى قبره. فنحن معشر الجمادات نفهم الموت أكثر منكم، ونعرف أنه تحَوُّلٌ من صورة إلى صورة، كما أننا لا نفتقد الموتى، فكما كنت أحادث صاحبي عندما يخلو إليَّ

مساء كل يوم، فيحكي لي وأحكي له وهو يشرب الينسون، صرت الآن أحادث صورته المعلقة على الجدار. فليس حزني لموته، ولا لألم فراق بعد طول عشرة، إنما حزني كما كان حزنه، من وقاحة النكران. وألمي كما كان ألمه، من مرارة الجحود!! فقد قرأت اليوم في جريدة الأهرام مقالًا افتتاحيًا ذكرني بآلام صاحبي، في عشر سنوات طوال قضاها هنا في وطنه بعد طول اغتراب. فبدلًا من أن ينعي «الأهرام» صاحبي الذي مات أمس، في 21 سبتمبر 1911م، خرجت افتتاحيته اليوم تقول:

«انتقل إلى رحمة الرحمن، الواحد، العادل، القاهر، المحيي، المميت، الديان، أحمد عرابي الشهير الذى قلب بثورته وجه المسألة الشرقية؛ وغير توازن القوات الأوروبية، وجر على مصر الاحتلال! وعلى السودان الشركة الإنجليزية! وجعل شرقي إفريقيا ووسطها نهبا بين الدول والأمم، بعد أن كان خالصًا لمصر، وينظر إليه إسماعيل العظيم نظر الملك الجبار إلى أكبر مستقبل يركز، وأعظم ملك يؤسس، من مصب النيل وحافة العريش وأطراف برقة وسواحل الصومال إلى خط الاستواء، بل إلى سواحل الباسفيك، فأضاعت ثورة عرابي هذا المُلك مترامي الأطراف، وهدمت أوروبا هذه السلطنة الإفريقية، التي لو تم بنيانها على ما أسس محمد علي، وعلى ما بنى إسماعيل، لفاقت مصر اليابان، وكانت سلطنتها العربية الإفريقية أكبر سلطنة في هذا الزمان، ولكنه لم يُقَدَّر لإسماعيل أن يتم بناء جده ولم يقدر لخلفه توفيق أن يحتفظ بالجزء الأصغر من إرث

أبيه، ولم يقدر للمصريين أن يُطفئوا جذوة العرابيين، بل زادوها ضرامًا، وجعلوا استقلالهم الخاص فوق استقلال ملكهم البعيد أكلًا لها، وذهب العرابيون، وذهب اليوم عرابي، تاركين لأمتهم الحسرة والغصة، ولجميع الأمم أيضًا العظة والعبرة»[1].

ألا يحق لي أن أتألم إذن؟ لرجل عاشرته خمسة عشر عامًا، فما وجدته إلا فلاحًا مصريًا نقي السريرة، مخلص النوايا، صادق اللفظ! ولماذا كل هذا الفزع من شيخ فانٍ، ثم الفزع من ذكراه حتى وهو ميت؟ ألم يكفهم ما استقبلوه به في اليوم التالي على وصوله لمصر؟

في ذاك اليوم، دخل عليه ولده الأكبر وفي يده صحيفة «اللواء»، الناطقة بلسان الحزب الوطني وزعيمه «مصطفى كامل»، دخل عليه وهو مقطب الحاجبين فقال:

- مصطفى كامل كاتب مقال عنك يا والدي، وناشر قصيدة لأحمد بك شوقي.

توجس صاحبي من هذين الاسمين، «مصطفى كامل» و«أحمد شوقي»، فأما «مصطفى كامل» فهو صديق السلطان العثماني، والمدافع عن تبعية مصر

(1) نص المقال الافتتاحي المنشور في جريدة الأهرام في يوم الجمعة الموافق 22 سبتمبر 1911م، في اليوم التالي للوفاة، وهو يعكس تأثر الصحافة في عهد الخديوية بتوجه السلطان، فلم يكن الخديو بطبيعة الحال راضيًا عن عرابي الذي تحدى آباءه! ولعل هذا يرد بعض مزاعم الباكين على عصر الليبرالية المزعوم قبل ثورة يوليو.

للباب العالي ودولة الخلافة الإسلامية، تلك التبعية التي ثار عليها صاحبي منذ عقود، بعد أن اكتشف حقيقتها الفارغة، ورأى الاستعمار الأجنبي فيها يأمر وينهى. فما عساه يكتب عنه؟ وأما «أحمد شوقي» فهو أشهر شعراء مصر، شاعر قصر الخديو الذي تربى فيه صغيرًا، حيث كانت والدته التركية من وصيفات أم الخديو[2]، وكان دائمًا صوت القصر المدافع عنه! فماذا عساه يكتب بدوره؟

كان صاحبي في تلك اللحظة واقفًا بجوار نافذته المطلة على ميدان الزهور، في ضاحية باب اللوق الخضراء البعيدة عن زحام القاهرة[3]. شعرت بيده التي تمسكني تهتز من التوتر لمشهد وجه ولده المربد، ولتوقعه السوء من الاسمين، وعندما بدأ الولد في قراءة المقال على والده، شعرت بالشيخ يهرم ويزداد ثقله عليَّ، حتى جلس على المقعد القريب؛ إذ صعب عليه الوقوف. فكأنه تهدم! وعندما جاء الدور على القصيدة «العصماء»، لم يسمع منها غير البيت الأول الذي يقول:

صغار في الذهاب وفي الإيابِ

أهذا كل شأنك يا عرابي؟[4]!

(2) حقيقة.

(3) في ذلك الزمان كانت باب اللوق ضاحية هادئة.

(4) حقيقة مؤسفة، و"القصيدة منشورة في صحيفة اللواء في يوم 12 سبتمبر 1901م اليوم التالي على وصوله من المنفى، وقد كانت النخب المثقفة تزعم أن عرابيًا - وليس الخائن توفيق - هو من جلب لمصر الاستعمار!! فاعجب معي من نخبة كهذه!!

لم يسمع غيره، وأشار لولده بيسراه أن يتوقف، ويخرج من الغرفة، بينما أكب برأسه على يمناه التي تمسك بي، فأراح جبينه على ظهر يده القابضة عليَّ، وشعرت به يهتز في مقعده، ثم بالدموع الدافئة وهي تسيل على عودي!! لم يبكِ حتى في المنفى، لم يبكِ رغم كل الآلام، ورغم فقده لولده الذي أنجبه هناك! فإذا به يبكي صبيحة يوم وصوله لبلاده!

لماذا أبكيتموه يوم وصوله؟ ولماذا أبكيتموني اليوم بعد رحيله؟ لكم فاعلموا، لو كان أمير شعرائكم قد كتب يهجوه، فأنا ـ تلك العصا التي تزعمون أنها صماء بكماء ـ سأنعيه وأقول:

جحود في اللقاء وفي الذهابِ

أهذا كل حظك يا عرابي؟!

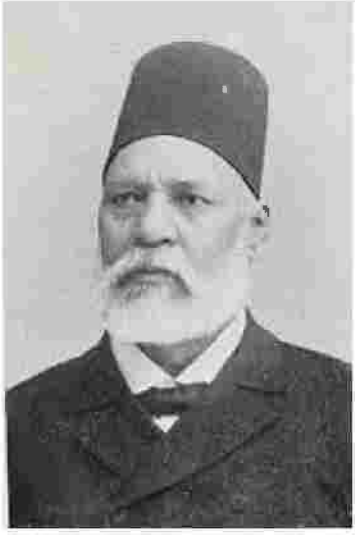

عرابي شيخًا بعد عودته من المنفى

(2)

باب هرية رزنة

الزمان: ١٨٤١م إلى ١٨٥٥م

المكان: قرية هرية رزنة، مركز الزقازيق، مديرية الشرقية

أنا الباب الخشبي العتيق في بيت الشيخ «محمد عرابي» شيخ بلدة[5] هرية رزنة، من أعمال مركز الزقازيق بمديرية الشرقية، وفقًا لآخر تقسيم استحدثه جناب والي مصر «محمد علي باشا».

في هذا البيت ولد الفتى «أحمد عرابي» في آخر مارس عام 1841م، وفي هذه الحجرات الثلاث الضيقة - التي يغلقونني عليها في المساء - قضى طفولته وطورًا من صباه. هل تعجب من ضيق بيت شيخ البلد؟ وجدرانه المبنية من اللبن والآجر؟ لم يكن مشايخ البلد يا سيدي وجهاء في هذا الزمان، ولا كان بين المصريين وجهاء، إلا ما ندر! فالشيخ «محمد عرابي» لم يكن يملك قيراطًا واحدًا، وإنما كانت له «حيازة» بضعة أفدنة من أراضي القرية[6]، هي ما عرف في عهد الباشا

(5) لم يكن والده عمدة كما توز: بعض المصادر لأن نظام العمودية لم يكن معمولًا به عند ولادته وحتى وفاة والده، لكنه كان شيخ حصة أو شيخ بلدة هرية رزنة.

(6) لم يكن والده يمتلك سبعين فدانًا كما تحدثت المصادر غير الدقيقة، فقد خلطت بين الأرض التي أحرزها عرابي بعد عمله كضابط وحسبتها إرثًا عن والده.

باسم «المسموح»، وهي مساحة تترك في حيازة شيخ البلدة، ينفق من ريعها على أعمال الحكومة في القرية، وعلى زوارها من الموظفين الحكوميين، وينفق الباقي على نفسه وبيته كأجر على عمله الحكومي. نعم، كانت للشيخ أرض قبل إعلان الباشا قانون الاحتكار، يسدد ضريبتها للملتزم، فنزعت منه ملكيتها، وصار «المسموح» مصدر رزقه الوحيد. وهكذا كانت حال كل المصريين، حيازة أرض بغير ملكية، حتى تحولت الحيازة لملكية من جديد بعد إصدار اللائحة السعيدية في عهد الخديو سعيد.

كانت نسبة «المسموح» من أرض القرية تزيد كلما ازداد شطط شيخ البلدة في جباية الضرائب المفروضة على حيازات الفلاحين، فقد كانت لكل فلاح حيازة من ثلاثة إلى خمسة أفدنة، يزرعها ولا يملكها، ويبيع محصولها للدولة ممثلة في شيخ البلد، والذي يسلمها بدوره للمديرية، ويدفع ثمنها للفلاح بعد اقتطاع الضريبة منه. ولو أصاب الزرعة بوار، يبقى على الفلاح صاحب الحيازة سداد الضريبة، فلو عجز نزعت حيازته، ليعمل «تملي» في أرض غيره من الفلاحين باليومية، أو في أراضي الأبعاديات والجفالك التي خصصها الباشا لرجاله من الألبان، ولقادة جيشه من الترك والجركس. أو في الوسايا التي أقطعها للأجانب والترك[7].

(7) نواة الإقطاع التركي والأجنبي في مصر، حيث تملكوا تلك الأراضي مع صدور اللائحة السعيدية.

ولأن الشيخ «محمد الحسيني عرابي» كان طيب القلب، عطوفًا على بني جلدته من الفلاحين، لم يكن «مسموحه» من الأرض كبيرًا، على خلاف بعض مشايخ «الناحية» الذين وصل مسموحهم لمئات الأفدنة بسبب قسوتهم[8]. لهذا، لا تتوقع أن ترى في بيتنا هذا مظاهرًا لليسار وبحبوحة العيش كتلك التي في دور هؤلاء، وإن كانت الدار في النهاية مرفهة فارهة مقارنة بدور فلاحي الحيازات والتملية، فقد كانت لدينا حشوة قطنية على «الدكة» الخشبية في غرفة المضيفة البحرية، وحشوة أخرى في غرفة النوم يرقد عليها الشيخ وزوجته الست «صفية الرفاعي»، بدلًا من فراش الحصير في بيوت الفلاحين، ذلك الفراش الخشن الذي كانوا يثنون طرفه الصلب كوسادة! كذلك كانت هناك فوق المسمار عباءة الجوخ التي هي زي عمل شيخ البلد، يرتديها شتاءً، و«يتلفع» بها في الربيع والخريف، ولا يتركها عنه إلا في عز الصيف، والشال الأبيض الذي «يكسره» على طاقيته دائمًا. ولكن لا تتوقع ليونة في المأكل أكثر من «الزفر» الذي يُربَّى أمام المنزل، ويذبح طير منه في ليلة الجمعة، أو تحل محله أوقيتين من لحم الجاموس في الجمع التي تعقب بيع المحصول. أما في بقية أيام الأسبوع، فكان الطعام هو الخضرة و«المالح» (المش) وأرغفة الخبز الجافة.

(8) نواة الإقطاع الصغير لبعض المصريين الذين أثرِيَ من إدارة تلك الأراضي الواسعة وتملكوها مع نهاية الاحتكار بصدور اللائحة السعيدية.

في هذه البيئة المتقشفة في واقعها، والمرفهة عند مقارنتها ببيوت الفلاحين، نشأ الفتى، وتعلم كأقرانه في كتاب القرية، وإن حاز ميزة إضافية، فقد كان صراف القرية المقدس «ميخائيل غطاس»، الذي يعين أباه في عمله الحكومي، يعلمه قواعد الحساب والأرقام.

حتى بلغ الفتى الثامنة من العمر، وتوفي والده إلى رحمة ربه، وخرجت «الخشبة» من تحت إطاري الخشبي في ذلك اليوم، يحملها شقيقه الأكبر مع باقي الرجال، وكان الفتى «أحمد» يمضي باكيًا بجوار الخشبة وهو يرمقها بعين حائرة لا تفهم الموت وحقيقته. ويصعد خلفها إلى التلة المرتفعة حيث جبانة القرية - والتي تتقي بارتفاعها فيضان النيل، حتى لا يحمل الجثث في فورته - فيقف الفتى بجوار شقيقه الأكبر يتلقى العزاء. وعندما مرا من تحتي عائدين للمنزل، كان شقيقه يضمه مسليًا ومواسيًا، وسمعته يُطمئن الفتي بأن والده حي فيه، وقد صدق.

رعاه شقيقه حتى أرسله للأزهر الشريف، بعد أن ختم القرآن الكريم في كتاب القرية، وشاهدت الفتى يخرج من تحتي وهو يرتدي العمامة البيضاء الحمراء، فوق جلباب ريفي عادي، فلم يكن الحال يسمح بشراء الجبة والقفطان الغاليين. وركب الفتي حمارًا حتى وصل لمحطة مركز الزقازيق، ومنها ركب «الوابور» للمحروسة.

كانت زيارته للمحروسة بداية لأفق جديد ينفتح له، متزامنا مع العام الذي شهدت فيه مصر ثلاثة حكام

يتوارثون كرسيها. فقد تنازل «محمد علي باشا» عن السلطة لولده «إبراهيم» باشا - أفضل حكام الأسرة العلوية على الإطلاق - في مارس 1848م. لكن القدر لم يمهل نابليون الشرق «إبراهيم» ليحكم غير ستة أشهر، يموت على إثرها بذات الصدر في سبتمبر من العام نفسه، ويلحق به والده العظيم الذي عجلت الصدمة منيته، ليجلس على تخت ولاية مصر «عباس باشا الأول»، واحد من أسوأ الحكام العلويين!! كأن لله حكمة في قصر أعمار حكام مصر العظماء الأخيار، وطول أعمار شرارهم!

كان الباشا الجديد معاديًا لفكرة تعليم المصريين، تلك التي تبناها والده وشقيقه الأكبر من قبله، كذلك كان رغم تحلله السلوكي ميالًا للتعصب الديني، فلو كان شقيقه «إبراهيم» هو من حارب السلفية الوهابية في جزيرة العرب، ودمر عاصمتها في الدرعية، فقد أظهر «عباس» ميلًا كبيرًا لها، حتى إنه استضاف في مصر أحد أبناء «محمد بن عبد الوهاب»، ليتعلم منه أصول المذهب الوهابي[9]! وكان نتيجة ذلك أن أصدر الباشا أمرًا بإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الطريقة الوهابية في شوارع مصر! وغير ذلك من قرارات التطرف والهوس، فأدى كل هذا إلى انتكاسة التعليم بعهده، وتراجع دور الأزهر الشريف وتردي العملية التعليمية فيه.

(9) حقيقة.

لهذا لم يلبث الفتي عامين في دراسته الأزهرية، زار القرية فيهما بضع مرات، حتى كان يوم رأيته فيه عائدًا يحمل «بقجة» ملابسه، ورأسه عارية من العمامة الحمراء! وعرفت من حواره مع شقيقه أنه ترك الأزهر. فقد كان أفندينا «عباس» يتدخل في شؤونه، ويقصي علماءه الكبار، ويقرب من يتزلف إليه، ليحل محل هؤلاء، حتى صار الأزهر كتابًا كبيرًا يعتمد فقط على الحفظ والاستظهار، في وقت كان فيه فتانا وثاب العقل، وهبه الله بسطة في العقل والجسم وفتوة في الساعد، لهذا رغب عن الأزهر والتعليم فيه بعدما غيب القهر كبار شيوخه وعلماء تنويره!

بعدها، رأيته للمرة الأولى وهو يعود من الحقل حاملًا فأسه و«غلقه». وبدأت يداه مع الأيام تكتسبان خشونة الفأس وصلابته، وتكتسب بشرته سمرة فلاحي النيل المميزة المحببة، فتزيد وجهه الشاب بهاءً ورجولة. وهكذا مرت عليه الأيام في «هرية رزنة» متشابهة كأيام ريف مصر القصيرة في القرن التاسع عشر، حين كان اليوم ينتهي مباشرة بعد صلاء العشاء، حين تتناول الأسرة مجتمعة وجبتها الرئيسية، بعد عودة الرجال من الحقل.

حتى بلغ الفتى الرابعة عشرة من عمره. وكان «عباس» باشا قد قتله غلامه في قصره المنيف، القائم في صحراء الريدانية، والتي صار اسمها العباسية بعد أن سكنها، وتولى شقيقه «محمد سعيد باشا» تخت ولاية مصر، وبدا للناس أنه سيكون أفضل من سلفه. ولم تمر شهور على

ولايته، حتى جاء يوم زار فيه المقدس «ميخائيل» فتانا وشقيقه الأكبر يزف إليهما بشرى:

- قريت في الجريدة النهاردة يا سي «أحمد» إن «سعيد باشا»، أصدر مرسوم بالسماح لأبناء مشايخ البلاد والقرى بالانضمام إلى المدرسة الحربية. دي فرصة العمر. ولو كان الشيخ «محمد» الله يرحمه عايش كان بعتك على طول. ولاد المصريين هيبقوا ظباط في الجيش مش أنفار، هتبقى راسنا براس الترك والجراكسة.

- رأسنا برأس الترك والجركس!

منذ تلك الليلة سكن الحلم الكبير عقله. أن يصبح أولاد المصريين ضباطًا بجيش مصر لأول مرة منذ إنشائه، فقد سمح لهم «محمد علي» باشا بالجندية وحمل السلاح كجنود فقط، بعد أن حُرِمَ المصريون من شرف الجندية وفتوتها لعدة قرون. وها هو «سعيد باشا» يسمح لهم بأن يصبحوا ضباطًا .. مثل الترك والجراكسة، وعبارة «مثل الترك والجراكسة» التي قالها معلمه القديم تلك، ستظل ترن برأسه بعدها بسنوات، وتدفعه للاضطلاع بجلائل الأمور. فقد صارت رمزًا لحق المصريين السليب في وطنهم، حتى جاء يوم، انطلق فيه الفتى يستعيد هذا الحق، فإذا استعاده، تطلع لغيره من حقوق أهم وأعظم.

منزل عرابي في هرية رزنة

الباب الخشبي العتيق

(3)

وتحدث السيف

الزمان: الخميس 1 سبتمبر 1881م

المكان: مقر آلاي العباسية، صحراء العباسية

أنا السيف .. أنا السيف أصدق أنباءً من الكتب، فأصغوا إليَّ أحدثكم بنبأ الصدق في أمر الفارس الذي ترجل، وأمر الهمام الذي خان همته الصديق قبل أن يرميها العدو. أنا سيفه الذي لازمه في صولة المجد، وفي أحزان الانكسار، ولم يفارقني منذ استلم مقبضي بكفه الريفية الخشنة في المدرسة الحربية، وطالع نصلي اللامع بشغف وانبهار، حتى تركني مرغمًا وقد صار أمره بيد عدوه!!

ولأني كنت ألصق الأشياء به، فلسوف أحدثكم بالكثير عن الحقائق التي كذبت في أمرها الكتب. لكني اليوم سأبدأ حديثي بمقدمات اليوم المشهود؛ واحد من أمجد أيام وطنكم لو تعرفون. إنه يوم الجمعة، التاسع من سبتمبر عام 1881م. يوم تدخل الجيش ـ قوة الشعب الصلبة ـ للمرة الأولى، لينصف أمته وينتصر لها، ولم يكن قد مر على تمصير ضباطه ثلاثين عامًا.

كان الحال في البلاد من سيئ إلى أسوأ، فقد باع «إسماعيل» أسهم مصر في قناة السويس، ثم باع ولده «توفيق»

نسبة 15 % من إيرادات القناة، كانت المعاهدة قد نصت عليها نظير وجود القناة على أرض مصر، باعها «توفيق» لنادي الملايين في باريس لسداد جزء من فوائد الدين الفرنسي. واجتمعت الدول الدائنة (فرنسا، إنجلترا، روسيا، وألمانيا) فشكلت لجنة لتصفية الديون، وأصدرت تلك اللجنة الأجنبية، وبمعونة ناظر نظار[10] مصر «رياض باشا»، قانون التصفية عام 1880م، وبموجبه تخصص نصف الإيرادات المصرية لسداد الديون!! فتدهورت بهذا أحوال الناس، ثم ألغى «رياض باشا» عام 1881م «قانون المقابلة»[11]، فأهدرت حقوق وأموال ملاك الأرض الزراعية من المصريين، بينما حقوق الأجانب مصونة لا تمس. كذلك عاد في عهد «رياض باشا» نظام المراقبة الثنائية الذي ألغاه «شريف باشا» من قبل، فأصبح في الحكومة المصرية وزير إنجليزي للخزانة، ووزير فرنسي للإنفاق الحكومي.

قبل اليوم المشهود بأسبوع، رأيت أميرآلاي القلعة «عبد العال حلمي بك»، وأميرآلاي السواري «أحمد عبد

---

(10) منصب يعادل رئيس الوزراء حاليًا.

(11) قانون ابتدعه «إسماعيل صديق باشا» (إسماعيل المفتش) عام 1878م في عهد الخديو «إسماعيل»، وهو وسيلة للاقتراض الداخلي، حيث يقضي القانون بأن يدفع ملاك الأطيان الضرائب على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدمًا، وبالمقابل، تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف قيمة المربوط عليها. وبغض النظر عن كونه قانونًا معيبًا، يبيع حقوق الدولة في المستقبل مقابل سيولة فورية، إلا أن الإلغاء جاء معيبًا أكثر، حيث لم يرد المال لمن دفعوه، وحرمهم من المقابل.

الغفار بك»، في مكتب القائمقام «أحمد عرابي» قائد آلاي العباسية. و«عرابي» اليوم هو الرجل الذي أكسبه موقفه الشجاع يوم قصر النيل - وإرغامه الخديو في ذلك اليوم على إقالة ناظر الحربية الشركسي «عثمان رفقي باشا»[12] - شعبية واسعة في صفوف الجماهير والجيش على السواء. وجعل الحركة الوطنية المصرية شديدة الحرص على التواصل والتنسيق معه. لأن تلك الحركة الناشئة عرفت فورًا أن وجود ضباط مصريين في الجيش - بعد أن كانت القيادة حكرًا على الترك والشراكسة لعدة عقود - قد غيَّر قواعد اللعبة في مصر من الآن فصاعدًا. وأن القائد الذي استطاع إجبار الخديو على إقالة ناظر الحربية الشركسي وتعيين «محمود سامي البارودي باشا»[13] مكانه، قد صار رمزًا للإرادة الوطنية حتى في الريف، حيث صار الفلاحون شديدي الاعتزاز بأن «عرابي» الشرقاوي فلاح منهم.

(12) أصدر ناظر الجهادية الشركسي «عثمان رفقي باشا» في 16 يناير 1881م مرسومًا يبعد «عبد العال حلمي بك» والقائمقام «أحمد عبد الغفار بك» عن موقعيهما في قيادة آلاي طرة وقيادة آلاي السواري، وعين مكانهما ضابطين شركسيين، تضامن معهما عرابي متطوعًا ووقع معهما عريضة يطالبون فيها بإقالة «عثمان رفقي» المضطهد للضباط المصريين لصالح الترك والجراكسة، وقدموها لرياض باشا ناظر النظار في اليوم التالي، فما كان منه إلا أن أمر باعتقال الثلاثة وتم ذلك بعد دعوتهم لاجتماع في ثكنات قصر النيل، فتحرك البكباشي «محمد عبيد» وحاصر بجنوده ثكنات قصر النيل حتى أفرج عن زملائه وتمت إقالة «عثمان رفقي».

(13) القائد العسكري والشاعر الكبير، مؤسس مدرسة البعث والإحياء في الشعر العربي، كان شركسي الأصل مصري الهوى، عربي الهوية. ولقب برب السيف والقلم.

هكذا بدأ تواصل «عرابي» ورفاقه مع رموز «الجمعية الوطنية» التي تأسست من قبل في عام 1879م، وأصدرت بيانًا مطبوعًا تدين فيه الاستبداد، وزعت منه آلاف النسخ على الجماهير في ربوع مصر، والتي عرفت بين العامة باسم «جمعية حلوان»، نسبة لمقر اجتماعها الأسبوعي القديم في ضاحية حلوان. وبهذا التواصل بين الوطنيين المدنيين المؤمنين بقضية الدستور، وبين «عرابي» ورفاقه، اكتملت صورة الثورة المصرية القادمة.

كان الضباط الوطنيون يعرفون أن رجال الخديو و«رياض باشا» يحصون عليهم أنفاسهم بالفعل، لهذا عقدوا اجتماعهم هذه المرة في مكتب «عرابي»، خاصة بعدما جرت بعض محاولات اغتيال بعضهم أمام منزله. فلم يعودوا معنيين بكتمان أمر تواصلهم ببعضهم بعضًا. لكنهم اختلفوا في ذلك اليوم في كتمان أمر آخر، هو يوم التحرك الكبير لسراي عابدين.

خلال نقاشهم، قال «أحمد عبد الغفار بك» محاورًا زميليه «عبد العال حلمي بك»، و«أحمد عرابي»:

- يعني راسك يابس برضو يا «عرابي» ومُصِرُّ تبعت الرسالة؟ لو أخطرت «توفيق» و«رياض» بموعد تحركنا للقصر، هيعملوا ما بوسعهم لتفريق رأي الضباط والجنود، ويجوز تتراجع بعض الآلايات عن المشاركة.

- صحيح يا «أحمد بك». لكن يهمني تكون الرسالة واضحة أمام الجنود والشعب. الجيش لا يتحرك غدرًا!! كمان عاوز الجماهير تكون عارفة بالتحرك، وعلشان كده رتبت مع «سلطان باشا»[14]، و«حسن الشريعي»، و«السيد البكري»[15]، وبعض الأعيان ومشايخ البلاد والقبايل. وكلهم عرفوا الميعاد، وبالتالي لم يعد سرًا. ومهما كانوا مخلصين، فالخطأ وارد. يعني في كل الأحوال الخديو وناظر النظار هيعرفوا، لو مكانوش عرفوا فعلًا. يبقى خلينا ننذرهم رسميًا، وقد أعذر من أنذر.

هنا تدخل «عبد العال حلمي بك» بقوله:

- وأنا من رأي «عرابي» يا «أحمد». نتوكل على الله ونرسل الرسالة. محاولات إجهاض التحرك أكيد بدأت بالفعل، لأن الأمر لم يعد سرًا، وأكيد هيبدأوا بالمحاولة مع «علي بك فهمي»، بوصفه قائد آلاي الحرس الخديوي.

- إنت مالي إيدك من موقف «علي فهمي» يا «عرابي»؟

هكذا سأل «عبد الغفار بك» فأجابه «عرابي» بأن زميل سلاحهم «علي فهمي» ضابط مخلص في وطنيته، وإن كان مراوغًا، لهذا يعتقد «عرابي» أنه سيداهن

(14) رئيس مجلس شورى النواب فيما بعد.

(15) نقيب الأشراف.

الخديو، ولن يجهر بموقفه الحقيقي إلا عندما يطمئن لجدية الحركة كلها، ولوجود آلاي المدفعية تحديدًا في الميدان، نظرًا لأن للمدفعية دور الحسم. لهذا فموقف «علي فهمي» مرتبط بالتزام «إسماعيل صبري بك» أميرآلاي المدفعية. علق «عبد العال حلمي» قائلًا:

- وأنا أضمن التزام «إسماعيل بك» كنفسي.
- تبقي مشكلة المشاكل.
- قصدك آلاي قصر النيل يا «عرابي»؟
- معلوم. الأميرآلاي «محمد بك شوقي» مش هيتعاون معنا بكل تأكيد، وليس في بكباشية الآلاي من يعتمد عليه حين يجد الجد.
- اطمن، يوم الجمعة هيكون الضابط المناوب للموقع هو اليوزباشي «أحمد أفندي عبد السلام»، وهو معانا، وامبارح عرض علي التحرك بالجنود في اليوم الموعود.
- عفارم عليه. اطلب منه يا «عبد العال» يتحرك من ثكنته قبل صلاة الجمعة، لأني متوقع القادة بتوعه يعملوا زيارة مفاجأة بعد الصلاة وفق الموعد المعلن، للتأكد من عدم خروج القوات. وعلى الله قصد السبيل.

انتقل «أحمد عبد الغفار بك» لموضوع يقلقه، لما لصاحبه من أثر على العامة والخاصة في مصر، فسأل

رفيقه عن موقف الشيخ «محمد عبده»، وهل ما زال عند رأيه المعارض لخروجهم؟ فأجابه «عرابي»:

- الشيخ «محمد عبده» معانا في قضية الدستور، وطبعًا هو من أنصار الحياة النيابية لأنه من تلاميذ «الأفغاني»، لكنه رافض فكرة الخروج بالقوة على الخديو، من يوم قصر النيل، دايمًا يقول لي في كل لقاء «عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين»[16]، وهو كمان حسن الظن برياض باشا، ويراه المستبد العادل[17]. يخشى مخاطر الانفلات مع الخروج على الخديو، ومن خلفه السلطان.

- ولكن ماذا ننتظر؟ وأي خير يضمنه الشيخ لمصر؟ أي خير سيأتي بعد إهدار مال الناس بإلغاء قانون المقابلة، وتجويع المصريين بقانون التصفية؟ وأي خير أصلًا بيد «توفيق» و«رياض» أنفسهم وهم قد خضعوا للأجنبي خضوعًا ذليلًا!!

- صدقت، لكني أظن الشيخ متأثر بعلاقته الإنسانية بناظر النظار. لهذا يتوسم فيه الخير.

---

(16) العبارة قالها الشيخ «محمد عبده» بالفعل لعرابي وكررها كما جاء في مذكرات عرابي.

(17) هذا الخلاف كان سبب معارضة «محمد عبده» للثورة العرابية رغم علاقته بعرابي ومواقفه الوطنية المعروفة، وهي آراء وجدت في كتابه الذي كتبه عن الثورة العرابية، ويعيب كتابه هذا أنه كُتب بناءً على طلب من «عباس حلمي» ابن الخديو «توفيق»، كما قال الشيخ نفسه في المقدمة، ولهذا كان كثيرًا ما يلتمس العذر للخديو ويجحف عرابي في حكمه.

قام الضابطان وقام معهما «عرابي» يصاحبهما حتى الباب الخارجي، وفي طريقهم سأله «أحمد عبد الغفار بك» لو كان قد أرسل بالفعل لقناصل الدول الأجنبية، فأجابه:

- أرسلت بالفعل لقناصل الإنجليز والفرنساوية والطليان. طمأنتهم بأن مظاهرتنا هي لمطالب داخلية وأن رعايا الدول الأوروبية في أمان ما لم يتدخلوا في الموقف.

- ربنا يستر، خوفي من تلك الذئاب يا «عرابي».

- الديابة لن تطل براسها إلا لو الخديو فتح لها باب الدار. يا ريت «توفيق» يكون لديه بقية من نخوة جده «إبراهيم» باشا، ولا يلعب بنار الأجانب.

- والله، لو كانت لديه تلك النخوة ما خرجنا عليه، ولو كانت لديه حتى مرونة والده «إسماعيل» ما خرجنا عليه.

عند الباب وهو يصافحهم أكد عليهم موعد المساء في بيت «سلطان باشا» مع الوطنيين من المدنيين، للوقوف على الخطوات النهائية لحشد أنصار الجمعية الوطنية المؤمنين بقضية الدستور ومجلس شورى النواب، والمعارضين للنظارة الحالية.

بعد أربعة أيام، كانت رسائل «عرابي» قد وصلت بالفعل للخديو، ولقناصل الدول الأجنبية، وفي يوم السادس من سبتمبر، دخل المستر «كليفن»، المراقب المالي الإنجليزي، على الخديو في مكتبه بقصر عابدين، وكان صديقًا شخصيًا لتوفيق يدخل عليه بلا

موعد، وكان قد عرف من نائب القنصل الإنجليزي المستر «كوكسن» بأمر رسالة «عرابي» وصحبه، فجاء للخديو يناقشه فيما سيفعله. أجاب الخديو:

- حاولت الاتصال بقادة الآلايات فلم يستجب إلا «علي فهمي» قائد حرسي، و«محمد شوقي» أميرآلاي قصر النيل، وأنوي نقل «عبد العال حلمي» و«أحمد عبد الغفار» خارج القاهرة، فهما ذراعا «عرابي» وعيناه. أصدرت فرمان نقل «عبد العال» بالفعل، لكن «البارودي» رفض، وأنا مش عاوز مشاكل زيادة مع الجيش، فأجلت الخطوة دي.

- هذا الصعلوك «عرابي» اجترأ على جنابكم أفندينا، وتشتيت ضباطه لن يحل المشكلة، ولن يعيد لجنابكم الهيبة المطلوبة.

- هل لديك اقتراح مستر «كلفن»؟

- نعم أفندينا، إذا جاء هذا الوغد يوم الجمعة، فاطلب من آلاي حرسك أن يتحصن خلف نوافذ القصر المواجهة للميدان، وبنادقهم جاهزة ومصوبة لحيث يقف «عرابي» وجنده. ثم إنزل أنت لمواجهته، وفي جنبك غدارتك الذهبية، وعندما يواجهك ويبدأ في الكلام، أطلق النار بيدك على صدره، بهذا يصعق جنوده، ثم يحيط بك حرسك الخاص فورًا، ويطلقون النار في الهواء، لتنسحب للقصر بأمان، وتخطب في الجند من نافذة القصر

مهددًا، وطالبًا منهم العودة لثكناتهم، وإلا سيطلق حرسك النار[18].

رُق لتوفيق ذلك المشهد حين تخيله، فأجاب:

- وبهذا يكون «توفيق» قد قتل المارق الخارج عليه بيده! خطة معقولة، لكنها تحتاج لتفكير وترتيب.

لاحقه «كلفن» وهو يتم فكرته:

- أطلب كذلك من «محمد شوقي بك» أن يتقدم بقوات قصر النيل، ليحاصر قوات العرابيين من الخلف، فيكونوا بين آلاي حرسك من الأمام، وآلاي قصر النيل من الخلف.

- جعبتك لا تفرغ من الحيلة يا صديقي!!

لم يكن هذا «الصديق» الإنجليزي غافلًا عما بخطته من حماقة تودي بحياة الخديو وتؤدي لاقتتال بين القوات، بل كان هذا هو عين مراده، فراغ في السلطة واقتتال بين القوات يعقبه بعض التحرش بالأجانب، وهنا يكون تدخل بريطانيا العظمى مُبرَّرًا و«أخلاقيًا» تمامًا!

ومر اليومان الباقيان، وجاء اليوم المشهود.

---

(18) كان هدف كلفن من تلك النصيحة وفق ما جاء في كتاب «كرومر» أن ينتهي الأمر بمعركة يقتل فيها عرابي وتوفيق وبعض قادة الجند وتقتتل قوات الجيش فتدخل البلاد في حالة فوضى، ثم تتقدم القوات الإنجليزية للدخول لمصر بحجة حماية مصالح الدول الدائنة.

محمود سامي البارودي باشا

(4)

هز الهلال يا عرابي

الزمان: الجمعة، 9 سبتمبر 1881م

المكان: ميدان عابدين

بعد أن حدثتكم عن المقدمات، عن قصة البطولة والإصرار في جانب، وقصة الخيانة والتدخل الإستعماري في جانب مقابل، حان الوقت لأحدثكم عن أعز أيام عمري وأكرمها. فأنا لست محظوظًا كأسلافي القدماء من السيوف، الذين كانوا عدة الحرب الأهم، وآلة النصر الأمضى، فقد مضى عهد مواجهة الرجل للرجل، ومقارعة السيف للسيف في الميدان، وجاء زمن القتل عن بعد، والموت الذي لا تعرف من أين أتاك. مضى زمن الحديد وجاء زمن النار، وحل دوي البارود والبنادق محل صليل الأبيض البتار؛ فاقتصر دوري وأبناء جيلي من السيوف على دور الزينة للفرسان في المحافل، ودور الشارة بيد القائد في الميدان. لكن هذا الدور المعاصر على قلته، وفي ذاك اليوم الجليل، صار فخري بين السيوف قديمها وجديدها.

في اليوم المشهود؛ يوم الجمعة التاسع من سبتمبر 1881م، كنت أنتظر فارسي فوق رف مكتبه، بينما كان يصلي الجمعة إمامًا بالجنود في ساحة التدريب، بثكنات الآلاي

في صحراء العباسية، وتناهى إليَّ صوته الأجش الهادر، وقد كان خطيبًا مفوهًا لو تعلمون، في زمن كانت الخطابة فيه شرط الرئاسة، وعلامة الزعامة. خطب «عرابي» في الجند، فذكر حال البلاد وما وقعت فيه تحت حكم «مصطفى رياض» باشا من استبداد، وأن الله أعانه وإخوانه من الضباط المصريين على إصلاح الجيش بالفعل، منذ نجحوا في تنحية ناظر الحربية «عثمان رفقي باشا» الشركسي، وتولية «محمود سامي البارودي باشا» مكانه. وها قد حان الوقت ليقوم الجيش بدوره نحو الأمة كلها، داعمًا حقوقها وآمالها، ومطالبًا بالبرلمان والدستور وتغيير ناظر النظار المستبد، وتولية «شريف باشا»[19] المؤمن بحقوق الأمة الدستورية مكانه. ثم أقيمت الصلاة، فقرأ فيها بعض الآيات التي تحمس الجنود. وسمعته بعد ذلك يأمر بكباشية الآلاي بإعداد الصفوف.

بعد لحظة رأيته يدخل إليَّ في غرفة مكتبه، بقامته المديدة التي تميل للامتلاء في غير سمنة، وخطوته الهادئة التي تذكرك بخطوات أعيان الريف. نظر نحوي على الرف بعينيه السوداوين العميقتين، وحاجبيه الكثيفين، وقد زم شفتيه حزمًا وعزمًا، تأملني للحظات، كنت فيها مترقبًا مهتاج الخاطر. هل يمكن أن يتردد فلا يأخذني معه؟ لقد انتظرت هذا اليوم طويلًا، طوال الأيام التي

(19) محمد شريف باشا، سياسي وطني تخرج في مدرسة الخانكة العسكرية وشغل منصب ناظر النظار أربع مرات، ولقب بأبي الدستور رغم خذلانه للثورة العرابية فيما بعد.

جرت فيها حواراته مع رفاقه تحت سمعي وبصري!! مر بعينيه على نصلي النائم في غمده، وهو يرفع أطراف شاربه العظيم بيمناه. ثم مد يده فرفعني، وكاد قلبي يرقص طربًا. اليوم يومك إذن يا سيف «عرابي»، ستراك المحروسة وأنت تلمع في ساحة عابدين، وتطاول عنان السماء!! سحبني من الغمد وتفقد نصلي .. وسمعته يقول:

- «باسم الله توكلت على الله، اللهم ارزقنا الإخلاص في عملنا هذا، واكتب لنا خيره وادفع عنا شره، بحولك وطولك وقوتك يا كريم .. الله أكبر على من طغى وتجبر».

ثم ردني للغمد، وعلق قرابي في كتفه، وانطلق للفرس فقفز فوقها، وتحرك نحو الجنود، وأقبل عليه أقدم البكباشية يعطيه التمام، فسحبني من غمدي - وأنا أكاد لولا وقار السيوف أهتز طربًا - وأشار بي للجنود بالتقدم، فنفخ جند الإشارة في البروجي بإشارة التحرك. وتحرك أمام الجند صف الطبول، يدقون دقاتهم الرتيبة لتنظيم حركة الجند، وقد تقدم «عرابي» الركب كله بفرسه، وبجواره فارس يحمل العلم المصري الأحمر، تزينه أَهِلَّةٌ ثلاثة ونجوم ثلاث[20]. وخلفهما صفوف الخيالة، تليها صفوف الرجالة.

(20) علم مصر في عهد الخديوية، وكان قبله العلم الأحمر العثماني ذو الهلال والنجمة الواحدة عندما كانت مصر ولاية عثمانية، وتلاه العلم الأخضر مع إعلان مصر سلطنة، واستمر بعد إعلان المملكة وحتى ثورة يوليو.

مع أذان العصر، كان آلاي العباسية وعلى رأسه «عرابي» قد قطع الصحراء، واقترب من مشارف المحروسة. بدأ الناس يخرجون للنوافذ يطالعون الركب، وهم في دهشة من أمره، فاليوم ليس يوم المحمل ولا عيد من العيدين!! كانت هذه هي المناسبات التي تعود الناس على رؤية الجيش فيها في شوارع المحروسة!

ترك بائع الخضروات «المشنة» على الرصيف واقترب من الركب يسأل أحد الجنود عن الفارس المهيب المتقدم للركب، فقال له الجندي إنه «عرابي» بك، ذاهب للخديو في السراية. لم يكن بائع الخضراوات البسيط يعرف أمر الدستور، ولا الوعد الذي قطعه الخديو على نفسه وأخلفه بعقد مجلس للنواب، لكنه كان يعرف أن «رياض باشا» سن قانوناً جديدًا جعل المال في يد الناس شحيحًا، وجعل الفلاحين الذين يشتري منهم الخضر في أعشر حال، ولما سأل بعض الأفندية أخبروه أن اسمه «قانون التصفية». وكان قد سمع كغيره من المصريين خبر مواجهة «عرابي» وصحبه للخديو وناظر النظار في واقعة «قصر النيل»، وما نجحوا فيه من إنصاف المصريين والحد من طموح الشراكسة. لم يكن الرجل البسيط قد رآى «عرابي» من قبل، وقد أكبر هيبته حين رآه، فاجتمع المشهد مع السيرة التي صارت سلوى للمصريين في الأسابيع الأخيرة. لهذا تحامل البائع العجوز على نفسه وهو يهرول حتى سبق الركب، مواجهًا «عرابي»، وأمسك لجام فرسه يستوقفه وهو يهتف:

- هز الهلال يا عرابي .. سبع الرجال يا عرابي[21].

انحنى «عرابي» بجزعه فوق الفرس ليربت على كتف الخضري العجوز، ثم أشار لحامل اللواء أن يهز العلم (يهز الهلال) وهو يبتسم، ويشير بيده مسلمًا على الشيخ وهو ماضٍ في طريقه.

تسلَّمت الجماهير المحتشدة في الشارع وفي النوافذ والمشربيات هتاف الخضري العجوز، فحورته ولحنته بأفواهها بلحن عفوي فوري، وأخذت ترده على مسامع الجيش الزاحف نحو القصر:

هز الهلال يا عرابي .. سبع الرجال يا عرابي

هز الهلال يا عرابي .. هد الجبال يا عرابي

وانطلقت الزغاريد تتخلل الهتاف السعيد، وبعض النسوة ينثرون الملح فوق الجنود العابرين أسفل نوافذهن. فهل كان كل هؤلاء يدركون عمق المطالب الوطنية التي خرج الجيش لأجلها؟ لا. ولكن الشعب الذي حرم من حمل السلاح بأمر المملوكي ثم التركي لعدة قرون[22]، يطرب قلبه لرؤية فرسانه حاملين السيوف والبنادق، ويشعر أنهم ذخره ليوم عصيب. الشعب الذي يكبر البطولة والجرأة والشجاعة حتى لو كانت من مغامر خارج عن القانون،

(21) انتشرت بين الناس وقتها صفات كثيرة لعرابي كان أشهرها «الرجل الوحيد»، وهو ما يدلل على الحقيقة التي عرفها الشعب قبل موجات التضليل الممنهج.

(22) حقيقة تاريخية.

كأدهم الشرقاوي أو «ياسين»، يكبرها أكثر في الجندي النظامي. تلك هي العلاقة التي سيحار في فهمها المسطحون جيلًا بعد جيل، وحتى يومكم هذا!!

دخل الآلاي لميدان عابدين. اصطف الجنود. وأشار لهم «عرابي» بوضعية حمل السلاح باليدين في وضع الاستعداد، خلافًا لوضع التشريفات الذي ترتاح فيه البندقية على الكتف. من الجهة المقابلة للميدان كان آلاي قصر النيل يدخل الميدان بقيادة اليوزباشي «أحمد عبد السلام» أفندي، المتمرد على قيادته المداهنة للخديو. وهنا، سحبني «عرابي» ورفعني عاليًا ليحيي بطولة اليوزباشي الشاب، هأنذا أرتفع كما حلمت في قلب ميدان عابدين، وأعكس الشمس على صفحتي البيضاء، وحدّي المسنون، كأن النجوم انتثرت فوقي في عز النهار!!

لم تمضِ دقائق حتى كان آلاي الخيالة يدخل الميدان، يتقدمه «أحمد عبد الغفار بك»، ومعه آلاي القلعة يقوده «عبد العال حلمي بك»، وجاء مسك الختام مع «إسماعيل صبري بك» يتقدم المدافع، ويأمر جنوده بتصويب المدافع نحو القصر. إذا فقد التزم الأبطال بالخطة المرسومة، ولكن .. تأخر آلاي حرس الخديو في الظهور!!

لكز «عبد العال» فرسه فجرى نحو «عرابي»، وسأله عن «علي فهمي» قائد آلاي الحرس وجنوده، فأجاب:

- بعت له مراسلة يسأله، فرد علي مع المراسلة بعبارة واحدة: السياسة خدعة!

- وده معناه إيه؟

- هنشوف.. هنشوف.

قالها «عرابي» وهو متوتر الوجه، فآخر ما كان يريده هو اشتباك بين الجنود، يَقتل فيه المصريون بعضهم بعضًا، وهذا سيحدث حتمًا لو تخاذل «علي فهمي» عن النزول للميدان، ووقف بجانب «توفيق».

لكن ملامح وجهه سرعان ما تهللت بابتسامة، وهو يشير لبوابات القصر التي فتحت، وبدأ جنود حرس الخديو يتوافدون منها بأعدادهم الكبيرة نحو الميدان. بينما ظهر «علي فهمي» فوق فرسه، وركض بفرسه نحوهما وهو يقول باسمًا:

- لو الخديو عرف إني معاكم من البداية، كنتم هتيجوا تلاقوا القصر فاضي يا بكوات، كان هرب من زمان!

- عفارم يا «علي» .. عفارم.

قالها «عرابي» متهللًا، وهو يعاتب نفسه على سوء الظن بصاحبه.

كان الخديو في مكتبه يراقب المشهد كله من خلف الستائر، وقلبه يدق بعنف يكاد جسده يرتجف منه، فما أن رأى حرسه بملابسهم المميزة في الميدان، ينضمون لبقية جيشه، حتى انهار على مقعده، ووضع رأسه بين كفيه غير مصدق للفاجعة التي دمرت خطته، وهو يقول:

- الكلب «علي فهمي» خانني .. حرسي في الميدان.

كان الخبر صاعقًا لسامعيه كما كان صاعقًا لقائله، فقد كان معه في الغرفة السير «كوكسن» نائب القنصل الإنجليزي[23]، والمستر «كليفن»[24] المراقب المالي البريطاني. ولم يكونا أقل منه إحباطًا، فهكذا دمرت خطتهم الأولى بقتل «عرابي» وقتل «توفيق» انتقامًا له، ثم الفوضى واقتتال الجند، ثم تدخلهم المباشر! لكن .. جعبة المؤامرة لم تفرغ يومًا!

(23) كان القنصل العام البريطاني وقتها هو السير «إدوار: مالت».

(24) حقيقة تاريخية، حيث نزل الخديو من قصر، وهما يحيطان به.

ثورة الشعب وجيشه في ميدان عابدين

(5)

حكاية الفارس والنطع

الزمان: عصر يوم الجمعة، 19 سبتمبر 1901م

المكان: ميدان عابدين

عادت إليكم العصا المكلومة بالنكران، تقص عليكم ذكرى يوم عصيب. لم يرد «عرابي»، الشيخ العائد من منفاه، أن يمر شهر سبتمبر الذي شهد ثورته، دون أن يزور ساحة مجده في عابدين. استقل الحنطور في ذلك اليوم من باب اللوق حيث يسكن، ونزل متوكئًا عليَّ أنا ـ عصاه المطيعة ـ على مشارف ميدان عابدين، وكان الوقت عصرًا، نفس الوقت الذي دخله فيه يوم التاسع من سبتمبر فوق فرسه وبين جنده. تطلع ببصره للميدان وأسوار السراي، ورفع رأسه عاليًا وهو يتذكر تفاصيل لحظة المواجهة.

على الجانب الآخر من الميدان، وقف أفندي شاب، تعرف على «عرابي» من صورته التي شهدها منذ أيام في جريدة اللواء. قرأ يومها مقال «مصطفى كامل» الذي يلعن فيه نزق ورعونة «عرابي» التي جلبت الاحتلال البريطاني لمصر، فقد تعود «مصطفى كامل باشا» إلقاء اللوم على «عرابي» أكثر مما يلقيه على «دولتلو أفندينا توفيق»، فقد كان صاحبي برأيه هو المذنب الأول لخروجه مارقًا على الباب العالي ومقام أمير

المؤمنين، ووكيله الشرعي في مصر جناب الخديو[25].

قرأ الفتى مقال الزعيم الوطني الشهير، فشحنت نفسه اشمئزازًا من العسكري الخائن - برأيه - والذي ضيع وطنه ليحصل على ترقية!!

عبر الشاب الطريق وواجه الشيخ المستند إليَّ، يسأله ليتأكد:

- حضرتك «أحمد باشا عرابي»؟

ابتسم «عرابي» مبتهجًا بهذا الشاب الذي تعرف عليه وهو لم يعاصره، فمد يده للشاب ليصافحه وهو يجيب:

- أيوه أنا يا ابني.

- اتفو!!

بصق الشاب الأرعن بوجه البطل الشيخ[26]، واستدار مهرولًا يبتعد. صعقت المفاجأة «عرابي». فأسقطني من يده على الأرض، وهالني مشهده وهو يضع ثقله جالسًا على رصيف الميدان. رأيته يومها - والألم ينخر في نخرًا - وهو يمسح البصقة الدنسة على وجهه بكفه المرتعشة انفعالًا. ثم ينظر لكفه التي شهرت السيف يومًا بوجه الخديو في هذا الميدان نفسه!! ذبحه سؤال واحد مرير: ألهذا الحد شوهوك يا «عرابي"؟! لهذا الحد أقنعوا الشباب

(25) هذا هو الرأي الذي تضمنته مقالات «مصطفى كامل» سالفة الذكر عن الزعيم «عرابي» - رحمه الله.

(26) واقعة حقيقية بكل أسف.

أنك عدو لهذا الوطن؟ وأنك أنت ـ وليس الخائن «توفيق» ـ من جلب الاستعمار!!

رفعني بطلي جريح النفس بكفه المرتعشة من عرض الطريق، فوضعني إلى جواره على الرصيف. وأخذ ينظر بوجهه المربد للسراي والميدان ولسان حاله يقول: اشهد بالحق لنا أو علينا يا ميدان عابدين!! اشهد بالحق. من حفظ ومن خان؟ اشهد لله والتاريخ، من حفظ مصر ومن باعها؟!

وتداعت الذكريات تترى. منها ما عاشه في الميدان يومها بنفسه، ومنها ما عرفه لاحقًا حول ما دار داخل جدران السراي، إذ رواه له الإنجليزي الشريف «بلانت»[27] نقلًا عن بني جلدته.

ففي ذلك اليوم جرى الحوار ساخنًا بين «توفيق» وصديقيه البريطانيين «كوكسن» و«كليفن»، حيث فكر «توفيق» في الخروج من بوابات القصر الخلفية، فأثنوه عن الفكرة التي كانت كفيلة بهدم عرشه، ونصحاه بأن يواجه «عرابي» ويحقره أمام الجند، فلو تمكن من هذا كان خيرًا، وإن لم يتمكن منه يعود للقصر، ويترك لهما مهمة التفاوض مع «عرابي» والوصول لحل للأزمة. وكان لهما ما أرادا؛ فخرج «توفيق» من القصر يحيطه البريطانيان عن يمينه ويساره. فلما اقتربوا

(27) صحفي بريطاني حر من المساندين لتحرر الشعوب كتب عن عرابي فأنصفه أكثر من معظم الكتابات المصرية عنه.

من حيث يقف «عرابي»، صاح به الخديو أن يترجل عن فرسه ويغمد سيفه.

سمع «عرابي» أصوات تعمير البنادق خلفه، فسارع يشير للجند بالثبات. وتأمل وجه «كليفن» الذي يشي بتطلعه لتصعيد الموقف، فضبط «عرابي» أعصابه، ووضع السيف في غمده، وكان سيفه يتحرق شوقًا لينطلق في رقاب هؤلاء!! ثم ترجل عن فرسه، وتحرك نحو الخديو وصاحبيه. فقال «توفيق»:

- لماذا أتيت بالجند إلى هنا يا قائمقام؟

- أتينا نرفع لجنابكم مطالب الأمة، والتي أرسلناها لكم في عريضتنا منذ أيام، وها هي جماهير مصر تقف خلف صفوف الجيش لتعلن تأييدها لتلك المطالب.

- كل هذه المطالب لا حق لكم فيها. أنا خديو البلد، وأعمل اللي أنا عاوزه، هذا الملك تراث آبائي وأجدادي[28].

هنا رأيت فارسي وقد تغير وجهه. شمخ برأسه ووضع يمناه على مقبض السيف في قرابه، ورد بكلمته التي ذاعت في الآفاق:

- «جنابكم خديو البلد لتفعل ما يجب وما يليق، وليس ما تريد. أما قولك أننا تراث آبائك، فلقد

(28) لم نجد مصدرًا نطمئن إليه يذكر كلمة «عبيد إحساناتنا» المتداولة.

خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا. فوالله الذي لا إله إلا هو، سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم».

قالها «عرابي» عالية مدوية ليسمعها كل من في الميدان من الجند، فهتف «إسماعيل صبري بك»، وهتفت خلفه الجنود وجموع الشعب التي أخذت تتوافد على الميدان:

الله أكبر .. تحيا مصر

الله أكبر .. تحيا مصر

كان الخديو ينتفض حنقًا، وهم بأن يرد، لكن السير «كوكسن» انحنى على أذنه، وهمس بكلمات، فاستدار الخديو عائدًا نحو سلالم القصر. فصاح «عرابي» في الجماهير، ليسمعه الخديو المنسحب من الميدان:

- في عام 1805م، عندما اجتمع السيد «عمر مكرم» وبقية أعيان مصر، فعزلوا «خورشيد باشا»، وألبسوا «محمد علي باشا» طيلسان الولاية وعمامتها، لم يكونوا عقارًا موروثًا، بل أحرارًا اختاروا أميرهم، لأنهم توسموا فيه القدرة والعزيمة.

توجه «كليفن» نحو «عرابي» يقول:

- كولونيل «عرابي»، اسمح لنا بمحاولة الوساطة لتقريب وجهات النظر بينكم وبين جناب أفندينا.

- نحن لا نوسطكم، هذا شأن مصري لا علاقة لكم به.
- رأيت بنفسك أن الخديو نزل للقائكم مصحوبًا بنا. يمكنك أن تعتبره هو من طلب تلك الوساطة.

تأمل «عرابي» وجه محدثه لحظة، ثم قال:

- كنا نكبر ونحترم رئيس وزراء بريطانيا السيد «ويليام جلادستون»، لمواقفه الداعمة للحرية منذ كان عضوًا بالبرلمان، والتي جعلتكم تطلقون عليه «ويليام الجماهير»[29]، ولكن يبدو لي من تصرفات قنصلكم العام، السيد «إدوارد ماليت»، وبقية الموظفين الإنجليز، أن «جلادستون» يؤمن بالحرية للإنجليز فقط دون غيرهم من شعوب الأرض. لهذا فأنا أكرر، نحن لا نوسطكم، ولكن إذا وسطكم الخديو وكان هذا طلبه، فنحن مضطرون للحديث مع من يفوضه.

هكذا يا سادتي غيَّر الإنجليز موقفهم عندما صارت كل صفوف الجيش موحدة، بما في ذلك آلايات قصر النيل والحرس الخديوي، عندها فهموا أن التصادم مع الثورة صار مستحيلًا. ودفعوا بالخديو للتصعيد اللفظي فقط، في محاولة أخيرة لكسر صورة الزعيم بين رجاله، متأثرين بما سمعوه عن المصريين - من بعض الأقلام والأفواه المصرية للأسف - حول أساطير وأباطيل

(29) William of The People

تقديس الحاكم الشرعي منذ عهد الفراعنة، لكن «عرابي» وجنوده والشعب معهم أثبتوا اليوم خطأً تلكم النظرة الدونية. فكانت محاولة محكومة بالفشل، فقد امتلك «عرابي» في تلك اللحظة كل أسباب القوة، بتوحد الجيش والجماهير خلفه، بينما كان «توفيق» معزولاً، ليس له صديق غيرهم. لهذا طلبوا منه الانسحاب لقصره، وأخذوا على عاتقهم مهمة الوصول لتسوية.

تردد «كليفن» والسير «كوكسن» يومها ست مرات بين القصر والميدان، في محاولة لإقناع الضباط بالنزول عن بعض مطالبهم. لكنهما في النهاية اضطرا لإقناع الخديو بقبولها كلها دفعة واحدة[30]، وها هو «كوكسن» نائب القنصل يقول له:

- بنينا إستراتيجية مواجهة «عرابي» على وجود اثنين من الآلايات الموالية لك، ثم تغير هذا فتغير كل شيء. عليك الآن أفندينا أن تقبل بكل شروطهم؛ لأننا ليس في يدنا أوراق نلعب بها. لو رفضت ربما أعلنوا خلعك فورًا، وأرسلوا للسلطان بأن المصريين اختاروا «عرابي» أو «محمد شريف» ليكون خديويًا لمصر. وسيقبل السلطان لأنه لن يملك غير القبول!

- حكم مصر وراثي في أسرة «محمد علي» منذ معاهدة التحالف الرباعي، والفرمان السلطاني

(30) حقيقة تاريخية.

الصادر بعدها. وبريطانيا كانت راعية تلك المعاهدة وذاك التحالف!!

- نحن ملتزمون بها أفندينا، ولكن لا شيء اليوم يلزم المصريين بها، ولا يلزم السلطان! لتتحني للريح حتى تمر، وبعدها - أعدك بشرفي - ستعرف بريطانيا متى وكيف تتدخل لتصحح كل شيء.

هكذا قبل الخديو، وأعلن عزل «مصطفى رياض باشا» وتولية «محمد شريف باشا» رئاسة النظار من جديد. كما تعهد بكتابة الدستور، والدعوة لانعقاد مجلس شورى النواب.

وحقق الشعب نصره في معركة الإرادة القديمة تلك .. لكن نارًا حامية بقيت تحت الرماد، نار الحقد في قلب «توفيق»، ونار الحسد على «عرابي» بين صفوف من كانوا بالأمس ثوارًا ورفاق ميدان، ونار الطمع البريطاني التي تتحين الفرصة - أو تخلقها - لتشتعل.

هكذا تدافعت الذكريات برأسه، وهو يقبض عليَّ محزونًا، حتى قام صاحبي متكئًا عليَّ، واقترب من أسوار سراي عابدين، فوقف يتأملها، وسمعته يقول بصوت هامس:

- رفض ساكن هذا القصر يومًا أن يكون حاكمًا حقيقيًا لشعب حر كريم، وكبر عليه أن يطلب الشعر حريته! وقبل - يا للعجب - أن يكون حاكمًا

صوريًا لبلد محتل. لقد قبل «توفيق» بدور «النطع»[31] الذي يقطع فوقه الجلاد الرؤوس، فلا هو سيف يضرب، ولا هو رأس يطير! لكنه مشارك في فعل القتل، ملوث بالدم!! قبل دور التكئة التي يستخدمها الاستعمار لقطع رأس الشعب الذي تطلع للحرية. ثم يأتي على الناس يوم يلومون فيه الفارس الذي واجه السيف بالسيف، ولا يلومون النطع الذي قطعت فوقه رأس الأحرار! ألا ساء ما تحكمون! ألا ساء ما تحكمون!

(31) قطعة من جلد البقر المجفف يضعها الجلاد تحت الرأس قبل ضربها بالسيف.

الخديو توفيق

(6)

استقالة الباشا

الزمان: 2 فبراير 1882م

المكان: منزل محمد شريف باشا

أنا «ويلفريد سكوين بلانت»، الصحفي والمستشرق البريطاني الذي تصادف وجوده في مصر وقت ثورتها العظيمة، ليكتب شهادة صدق للتاريخ عن حقيقتها وحقيقة زعيمها. كتبتها لأتبرأ مما فعله بنو وطني من الإنجليز بحق المصريين وثورتهم. وقد استأذنت من سيف «عرابي» وعصاه، أن أحكي لكم أنا الأحداث التي تلت ثورة التاسع من سبتمبر، وحتى بداية التدخل العسكري البريطاني، فقد عَرفت تلك الأحداث كما لم يعرفاها، سواء على صعيد واقع ما جرى في مصر، أو المؤامرة التي حيكت بدهاء وحنكة في أوروبا.

نجحت الثورة وأقيل «مصطفى رياض باشا»، وشكل «شريف باشا» وزارته، بعد تمنُّع دام أربعة أيام، حتى اضطر «عرابي» لزيارته في منزله، لأن تأخره شكل إحراجًا وضغطًا على الثورة، وهو ما أسعد القوى المناهضة لها طبعًا، حتى أرسل القنصل العام البريطاني «مالت» رسالة لوزير الخارجية «جرانفيل» كان نصها:

«كيف يمكن لشريف باشا أن يدير شؤون البلاد بينما مركز الثقل والنفوذ الشعبي هناك في بيت عرابي»[32].

وبالفعل، لم يكن ما قاله قنصل الإنجليز بعيدًا عما فكر فيه «شريف باشا»، فحين زاره «عرابي»، استمر الحوار بينهما، وكان «عرابي» طويل البال يرد على كل ذريعة لمحاوره، حتى أفصح «شريف باشا» عن مكنون نفسه قائلًا:

- لن أشكل وزارة والعسكريين لهم كل النفوذ ده في البلد.

- العسكريين؟! حضرتك يا «شريف باشا» خريج مدرسة الخانكة العسكرية!! ومع ذلك أنت أول من طالب بالدستور، واحنا زيك. هل أصبحت العسكرية سبة وتهمة؟

- لا سبة ولا تهمة، لكن شَرْطي أن تكون أنت و«عبد العال حلمي» خارج القاهرة. تقبلوا النقل لمكان خارج القاهرة، وما تتدخلوش في السياسة[33] من قريب أو بعيد!!

تعجب «عرابي» من هذا الشرط، فلماذا كان تدخلهم مقبولًا ومرغوبًا قبل يوم ٩ سبتمبر؟ لكنه أجاب قائلًا:

---

(32) الرسالة ومحتواها حقيقة تاريخية وفق ما جاء في كتاب «المسألة المصرية» لرونستين.

(33) حقيقة تاريخية وفقًا لشهادة ويلفريد سكوين بلانت في كتابه: «التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر».

- وأنا موافق يا باشا. وهنفذ النقل للمكان اللي يحدده «البارودي باشا»، ولكن بعد ما الخديوي يدعو لانتخاب مجلس شورى النواب. وموافقتي مرجعها ليس عدم وجود قامات وطنية تشكل الوزارة، لكن احنا رفعنا اسم جنابك بوجه الخديوي والأجانب، وتغييره دلوقت يضعف الثورة.

كان هذا القبول بحد ذاته دليلًا على إيثار الأبطال مصلحة الثورة على مصالحهم الشخصية، ولو كلفهم هذا النقل والإبعاد بدلًا عن التكريم والتقريب. وعندما علم «البارودي باشا» ناظر الحربية بشرط «شريف»، وقبول «عرابي» به، قال للأخير:

- غلط يا «أحمد»! النقل مش هدفه عدم تدخلكم، لكن هدفه إبعادكم عن الناس، علشان يرجع الشعب بدون قائد. مشهد الشعب والجيش وراك كان مفزع ليهم يا «عرابي».

قالها «البارودي» وهو يقوم من خلف مكتبه بقامته الفارهة، ويرفع طرف شاربه الذي يزين وجهه القسيم، ثم يستأنف قائلًا وهو يجلس في ود على المقعد المقابل لعرابي:

- الشعب وثق فيك إنت ورفاقك يا «أحمد»، وأصبح عليكم واجب كبير تجاه الثقة دي. مينفعش تبعد عن الناس!

- عارف يا باشا، والله عارف. لكن ما باليد حيلة. أنا وعدت.
- طيب يا حضرة القائمقام، وأنا بصفتي ناظر الحربية، أمرت بنقلك لمنطقة راس الوادي العسكرية في تخوم مديرية الشرقية، ونقل «عبد العال حلمي» لدمياط!

قالها «البارودي»، وعلى فمه ابتسامة محبة وتقدير، فقد كان «البارودي» الشاعر والضابط والإنسان رجلًا كبيرًا بمعنى الكلمة، لا تغير نفسه النقمة على ما حازه «عرابي» من مجد؛ بل جعل نفسه راعيًا لمجده، لهذا قرر نقل «عرابي» للشرقية وليس سواها من محافظات مصر، لأنه يعلم مدى اعتزاز مسقط رأسه به. ابتسم «عرابي» بدوره، بعد أن فهم ما يرمي إليه «البارودي».

انتهى اللقاء وبقي «عرابي» في المحروسة انتظارًا لوفاء الخديو باستحقاق مجلس النواب. وبالفعل، وقّع الخديو فرمان الدعوة لانتخاب مجلس شورى النواب في 4 أكتوبر 1881م، فنفذ «عرابي» النقل في 8 أكتوبر، دونما تأخير. خرج فارسنا بآلاي العباسية في طريقه نحو الشرقية. وتوقف الموكب عند ضريح الحسين، وخرج حي الحسين والأزهر في توديعه خروجًا حاشدًا؛ فأمر بوضع البيرق على الضريح وصلى الظهر مع الضباط والجنود في المسجد الحسيني. ثم تحرك لمحطة القطار، وعندما وصل إلى محطة مصر، هاله أن يرى آلاف المواطنين ينتظرونه في ميدان المحطة! وبينهم مئات الضباط

والجنود، يستقبلونه بالموسيقى العسكرية والهتاف باسمه. وقف فيهم «عرابي» خطيبًا، وقال:

«سادتي وإخواني .. بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد، وقطعنا غرس الاستبداد. ومن يقرأ التاريخ يجد أن شعوب أوربا حصلت على حريتها بأنهار الدماء وخراب الديار وهتك الأعراض، لكن الله أعاننا، فقهرنا الاستبداد في ساعة من نهار، واستجاب جناب الخديو لمطالبنا جميعها، ولم نرق دمًا ولم نهتك عرضًا ولا خربنا دارًا. لله الحمد والمنة. كان قيامنا لطلب الحقوق لا للعقوق، ثم عدنا بعد إحقاق الحق لطاعة الخديو، لكن بيننا من يحرص على إثارة الفتن، فاحذروهم»[34].

كان يعرف أن أخبار حركاته وسكناته وكل حرف قاله ستصل لشريف باشا والخديو، فأراد أن يطمئنهم أنه لا يستمرئ دور الزعامة، ولا يطلب لنفسه القيادة، هكذا أظهر ولاءه في خطابه هذا، كما صعد من قبل لتوفيق في السراي بعد قبول المطالب فجدد له قسم الولاء.

ومع ذلك الحرص، فقد انزعج هؤلاء من أخبار رحلته أيما انزعاج، فعلى طول طريق القطار نحو الزقازيق خرج الفلاحون يلوحون لزعيم الفلاحين، وعندما وصل القطار للزقازيق وجدها «عرابي» قد خرجت عن بكرة أبيها لاستقباله، وأقام بها عدة أيام حضر خلالها ولائم عدة،

(34) موقف الوداع والخطبة حقيقة تاريخية، نقلًا عن كتاب «عرابي الزعيم المفترى عليه» للأستاذ محمود الخفيف.

دعاه إليها الأعيان ومشايخ البلاد. ثم سافر بعدها لرأس الوادي حيث موقع تمركز الآلاي الجديد. لكنه لم يلبث هناك طويلًا.!!

فبعد تشكيل وزارة «شريف»، آتت الثورة ثاني ثمارها مع افتتاح مجلس شورى النواب في 26 ديسمبر 1882م، ولم يمر أسبوع من افتتاحه حتى صدر قرار نقل «عرابي» للقاهرة، وتعيينه وكيلًا لوزارة الحربية، بعد ترقيته ومنحه رتبة الباشوية. فقبل «عرابي» النقل، وتكليف بوكالة الحربية، رغم معرفته بدافع الخديو لطلب نقله، وهو خشيته من الشعبية التي أحاطت به في الشرقية ورأس الوادي، لكنه اعتذر عن الترقية ولقب الباشوية، حتى لا يقال أنه خرج يطلب مجدًا ومنفعة لنفسه، لم يكن يعلم أن هذا وأكثر منه سوف يقال!

جلس «عرابي» على مكتب وكيل نظارة الجهادية في قصر النيل، الفلاح الشرقاوي، الذي كان دارسًا بالأزهر ثم المدرسة الحربية، والذي عُيِّنَ «كبلوك ـ أمين» براتب ستة جنيهات، فطلب نقله لرتبة جاويش، حين علم أن البلوك ـ أمين وظيفة إدارية، وليست ميدانية، وقَبِلَ براتب الجاويش وهو ثلاثة جنيهات[35]! ها هو اليوم يصبح وكيلًا للوزارة، في مقعد لم يشغله قبله غير الشراكسة.

وسكن «عرابي» في باب اللوق، وصار بيته قبلة القاصدين، فزاره «عبد الله النديم» وغيره من مؤسسي

(35) حقيقة من نفس المصدر السابق.

جمعية مصر الفتاة، وزاره أعيان الحضر والريف، حتى إن بيته كان أول بيت يسمى بيت الأمة[36]، كما زرته أنا «ويلفريد بلانت» للمرة الأولى، فتملكني الإعجاب بثقافة هذا الضابط الريفي الذي يعرف اللورد بايرون ويحفظ بعض أشعاره! وبرؤيته للواقع المصري وتطلعات الأمة، وفهمه لعلاقة مصر بتركيا وأوروبا والسياسة العالمية[37]. لم نكن نعلم وقتها أن زياراتنا وزيارات البسطاء تلك لبيت الأمة في باب اللوق، أمست تشكل تهديدًا وقلقًا مستمرًا للساسة والخديو! لكني كنت واعيًا لأواجه تهديدات وتحديات أخرى كثيرة سوف تواجه الفارس، وتواجه آمال شعبه.

أشفقت على الثورة وفارسها بعد زيارتي الأولى له، فقد كنت مدركًا تمامًا لعظمة ما قام به، ولخطورته في الوقت ذاته من وجهة نظر بريطانيا وفرنسا. وكنت قد لاحظت تعليقات صحفنا الغربية الشهيرة على مجلس النواب، فتلك الصحف التي طالما تحدثت عن الحرية والمثل العليا، تحول موقفها فجأة للسخرية من تلك المبادئ نفسها عندما طلبها المصريون لأنفسهم. فتنشر صحيفة التايمس البريطانية تحقيقًا محتواه أن القائد الشرقي لو نزع من يده السوط أفلتت من يده الأمور![38]. وكنت أرى في مجمل ما تنشره صحفنا الغربية عملية

(36) حقيقة من المصدر السابق نفسه.

(37) خطاب بلانت لرئيس الوزراء الإنجليزي جلادستون الذي دافع فيه عن عرابي وحقانية ثورته ومطالبه.

(38) حقيقة وفقًا لمذكرات بلانت.

تجهيز للرأي العام الأوروبي للانقضاض على الحرية الوليدة في مصر، وجاءت الفرصة عندما وقع اختلاف الحكومة مع مجلس النواب.

كان «شريف باشا» قد قَبِل بوجود المراقبَيْن الماليين الإنجليزي والفرنساوي، واستمرار قانون التصفية، وكانت وجهة نظره هي ضرورة التزام مصر بالمعاهدات والاتفاقات الدولية. لكن نواب الأمة طلبوا مراجعة وتخفيض بنود الميزانية الخاصة بسداد جزية الباب العالي، وسداد الديون الأجنبية، وكانت وجهة نظرهم أن الشعب قارب الجوع بسبب تلك الإجراءات، وأنه ينتظر من ثورته أن تملأ بطنه أولًا.

رأيت الصحف البريطانية والفرنسية وقتها تصور «شريف باشا» بأنه البطل صاحب المبادئ الذي يراعي المعاهدات والالتزامات الدولية نحو تركيا والدول الدائنة، مقابل العسكريين والنواب الهمجيين الذين يمارسون بلطجة سياسية تحت اسم الحرية والعدل الاجتماعي. فعلمت أن أمرًا يجهز له! ثم جاءت الطامة الكبرى مع المذكرة المشتركة، والتي وقعها «جرانفيد» وزير خارجية بريطانيا، و«ليون جمتا» وزير خارجية فرنسا في 8 يناير 1882م، وجاء فيها نصًا:

«إن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش هو الضمانة الوحيدة في الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام في مصر واطراد رخائها، وإن الحكومتين اللتين اتفقتا في عزمهما على أن تمنعا كل

أسباب الارتباك والتي يمكن أن تهدد النظام القائم في مصر، لا يداخلهما الريب في أن جهرهما بما عزمتا عليه رسميًا، سيحول دون الأخطار التي قد تتعرض لها حكومة الخديو، وتثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاجه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه»[39].

تدخل صارخ ووقح في شأن داخلي بحت! وخلاعة سياسية خلعت عنها حتى ورقة التوت! وقد تلقيت اتصالاً هاتفيًا من «مالت» قنصلنا في مصر، يطلب مني زيارة «عرابي» بما أنه صار صديقي، وأن أشرح له أن المذكرة لا تعني تهديدًا، وأن بريطانيا تورطت فيها حتى لا تقوم فرنسا بعمل منفرد. قبلت المهمة لغرض في نفسي يخالف الغرض الذي رمى إليه القنصل.

دخلت يومها على «عرابي» مكتبه في نظارة الحربية، فوجدته غاضبًا كما لم أره من قبل، وفاتحني هو بالموضوع قبل أن أفاتحه، وهو يلوح بنسخة من المذكرة المشئومة كانت أمامه، قائلًا:

- ما معنى هذا سيد «بلانت»؟ على «جرانفيل» أن يفهم أن مصر دولة مستقلة، وأنه ليس من حقه الحديث عن دعم الخديو أو غيره. ثم دعمه ضد من؟ دعمه ضد شعبه ونواب شعبه؟ ومن الذي تمرد عليه؟ لقد جددنا له الولاء بعد إجابة مطالب الشعب؟

(39) حقيقة وفقًا لكتاب المسألة المصرية المشار إليه سلفًا.

- سيدي، بكل صراحة لقد كلفني القنصل العام أن أشرح لك الأمر.

ثم أخبرته بحجة استباق عمل منفرد لفرنسا، وأنا غير مقتنع بها، فأجابني:

- أتفهم معنى ما يقوله «مالت»؟ معناه أنه وفرنسا يستبقان لنيل نصيب أكبر من فريسة.

- سيدي، أنا أفهم غضبك تمامًا، وهذه المذكرة مستفزة بحق، ولكني أتوسل إليك، أن تشرح لسلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب، وبقية النواب من الوطنيين، خطورة الوضع الدولي.

أخذت أوضح له أن الصورة التي ترسم في «أوروبا» حاليًا هي حرص «شريف» والخديو «توفيق» على الاتفاقات الدولية وحقوق الدائنين، بينما هو - عرابي - همجي وانقلابي يهدف لإسقاط تلك الحقوق. وأن هؤلاء النواب ما هم إلا عرائس يحركها «عرابي» من خلف الستار، حتى إن جريدة نشرت واقعة مختلقة تقول إن «عرابي» هدد «سلطان باشا» وأشهر السيف بوجهه[40]. علق «عرابي» متعجبًا:

(40) واقعة نشر هذه الكذبة، وادعاء أن عرابي يحرك النواب من وراء الستار حقيقية. وقد أوردها «بلانت» في كتابه التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر مفصلة. أما كرومر في كتابه عن مصر الحديثة فقد ذكر تلك الكذبة المفتراة وكأنها حقيقة.

- هل يصل الاختلاق لهذا الحد؟ أنا أهدد «سلطان باشا» بسيفي؟ سبحان الله!

- كولونيل، يكفيني هنا تعليق «سلطان باشا» نفسه، إذ قال لي: عرابي يشهر سيفه ليحميني وليس ليواجهني[41].

أشهد أن «عرابي» بعد هذا اللقاء رتب لي العديد من اللقاءات مع بعض رموز النواب، لأطلب منهم الوصول لنقطة اتفاق مع «شريف» وعدم السماح بتفاقم الأزمة. وقد فعلوا، فتراجعوا عن بعض مطالبهم. لكن «كليفن» المراقب المالي الإنجليزي لم يُرِد للأوضاع أن تهدأ، فقال في تصريح علني:

«لو ظن النواب الفلاحون أن بوسعهم تأخير سداد جنيه واحد من حقوق بريطانيا، عليهم أن يفهموا أن التدخل العسكري عندها يصبح ضرورة[42]».

فاشتعل نواب الشعب غضبًا، واحتد بعضهم في النقاش مع «شريف باشا»، حتى جاءت الطامة الكبرى التي فتحت باب التدخل الأجنبي على مصراعيه، باستقالة «شريف باشا» يوم 2 فبراير 1882م.

(41) حقيقة وفقًا لشهادة بلانت، في كتابه التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر، وكان هذا طبعًا قبل أن ينقلب موقف «سلطان باشا» من عرابي لاحقًا، ويصبح مواليًا للقصر والإنجليز.

(42) حقيقة من كتاب التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر.

وقد عرفتُ فيما بعد من «عرابي» أنه زاره في منزله؛ عندما علم بعزمه على الاستقالة، وقال له:

- لقد قبلت شرطك بإبعادي عن القاهرة يا باشا من قبل، وقلت لك أني أقبله لأجنب ثورتنا الإحراج أمام الداخل والخارج. ودلوقت، من حقك إنك تستقيل طبعًا، ولكن ماذا ترى في توقيت استقالتك؟ «كليفن» يهددنا أمس بالتدخل العسكري، وأنت تستقيل النهارده؟!

- ربما كان التوقيت مشكلة، لكن بالمثل: ما طلبه النواب من قبل مطالب عادلة يا «عرابي»، ولكن التوقيت هو المشكلة برضو!

- وتنازلوا عما طلبوه، يبقى ليه الاستقالة؟

- الكلام ده فات أوانه يا «عرابي» أنا قدمت الاستقالة بالفعل لمكتب الخديو قبل ما أرجع البيت.

- طيب ولو جناب الخديو رفض الاستقالة؟

- جناب الخديو قابلني فورًا لما عرف إني جيت أقدم الاستقالة، وقبلها بالفعل.

هبط الوجوم على ملامح «عرابي»، وقام منصرفًا من منزل «شريف» حتى بغير سلام. في اليوم التالي عندما قابلته في مكتبه قال لي:

- يهدأ النواب، فيخرج «كليفن» بتصريح يشعلهم من جديد، ينفعلوا في الحوار مع «شريف» فيتقدم

باستقالة، والخديو يقبلها في نفس الساعة! هذا أمر دبر بليل!!

- هل تشك في إخلاص شريف باشا؟
- أنا لا أشك في خيانته لا سمح الله، لكن الإخلاص ليس قاصرًا على عدم الخيانة. الإخلاص يتطلب أحيانًا أن تنكر ذاتك في سبيل الوطن والقضية الكبرى، ولقد كان اعتداد «شريف» بنفسه واهتمامه بسمعته في الداخل والخارج أهم عنده عندما استقال من سمعة مصر وثورتها وقضيتها؛ فهل هذا إخلاص؟

كثيرة هي المواقف التي أتذكر فيها تلك العبارة الحكيمة لزعيمكم:

«لكن الإخلاص ليس قاصرًا على عدم الخيانة. الإخلاص يتطلب أحيانًا أن تنكر ذاتك في سبيل الوطن والقضية الكبرى».

المؤرخ البريطاني الشريف ويلفريد سكوين بلانت
وهو بملابس السجن خلال فترة اعتقاله في بريطانيا
بسبب دعمه لتحرر أيرلندا

(7)

حكايات الوَلَسْ

الزمان: مايو 1882م

المكان: قصر وستمنستر، لندن، المملكة المتحدة

حضرت ـ أنا ويلفريد بلانت ـ بصفتي الصحفية، جلسة مجلس العموم البريطاني الذي انعقد لمناقشة المسألة المصرية، حين وقف وزير الخارجية الليبرالي لورد «إيرل جرانفيل»، في قاعة البرلمان الكبرى، يقول:

«كنا قد أَمرنا بعد موافقة مجلس اللوردات بتحرك بعض قطع الأسطول البريطاني، مع مثلها من الأسطول الفرنسي، نحو الإسكندرية في مظاهرة بَحَرية سلمية. تم هذا بعد إعلام الباب العالي، وموافقة الخديو».

ثم سكت للحظات وهو يطالع ردود الأفعال على وجوه الحاضرين، وبصفة خاصة النواب الأكثر تأثيرًا، ثم ألقى بخبر يراه جيدًا وهو يقول:

«يسرني أن أخبركم أننا اتخذنا القرار الصحيح، ففي اليوم التالي لوصول الأسطول للإسكندرية، انحاز لنا البرلمان المصري المنتخب ورئيسه سلطان باشا[43]».

(43) الخطبة في مجلس العموم حقيقية وفقًا لشهادة بلانت في كتابه التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر.

خفق قلبي بشدة عندما سمعت خبر انحياز «سلطان باشا» لجانب الخديو والإنجليز، وخرجت على عجل لأبرق إلى عرابي برقية نصها:

«جرانفيل ذكر في البرلمان أن سلطان والنواب انحازوا للخديو ضدك، إذا لم يكن هذا صحيحًا فاطلب من سلطان أن يرسل لي تكذيبًا لأنشره هنا، إذا تضامنتم فلا خوف عليكم. ألا يمكن تشكيل وزارة يرأسها سلطان؟ على كلٍّ عليكم بالثبات[44]».

ثم أبرقت إلى «سلطان باشا» برقية قصيرة قلت فيها:

«كل من يحبون مصر يجب أن يتحدوا، لا تختلف مع عرابي، الخطر جسيم[45]».

لست مصريًا، ولكنني أحببت تلك الأرض وذاك الشعب، أحببت سمرة الفلاح المصري اللامعة تحت الشمس، وجلبابه الأزرق مفتوح الصدر الذي لم يتغير منذ عهد الفراعنة. أحببت فطرته النافذة. والحق أني أحترم في شعبكم المصري وعيه الكامن في أعماق الريف والصعيد. فبرغم كل حملات التشويه التي أصابت رؤية المثقفين والمتعلمين للزعيم القومي «أحمد عرابي»، احتفظ الفلاحين بصورته النقية، فعبروا عن مأساة البطل بقولهم:

«الوَلَس كسر عرابي»

(44) البرقية نصًا من كتاب التاريخ السري سالف الذكر.

(45) البرقية نصًا من كتاب التاريخ السري سالف الذكر.

ولا أجد خيرًا من تعبير «الولس» هذا، الذي يختزل معاني الخيانة والتواطؤ والتآمر، لأعبر به عما حدث!

كان «محمود سامي البارودي باشا» قد شكل مجلس النظار بعد استقالة «شريف»، وكلف «عرابي» بنظارة الجهادية. واضطر الفلاح المناضل لقبول رتبة اللواء والباشاوية - واللتان رفضهما من قبل - لأنه صار وزيرًا للحربية. وهنا بلغ الحقد في نفوس الضباط الشراكسة أقصاه، فاتصلوا بالخديو المعزول «إسماعيل»، والد «توفيق»، في إيطاليا، وخططوا لقتل «البارودي» و«عرابي»، والانقلاب على وزارة الثورة. لكن أحدهم وشى بهم.

هكذا، وفي يوم 12 فبراير عام 1882م، أمر «عرابي» بالقبض على 19 ضابطًا شركسيًا، وسيقوا للمجلس العسكري بتهمة الخيانة. وتعمد «عرابي» أن يضع على رأس المجلس الذي يحاكمهم ضابطًا شركسيًا شريفًا، فأسندت رئاسة المجلس العسكري للفريق «راشد حسني باشا[46]» الشركسي. واعترف بعضهم بالمؤامرة تفصيلًا، وبدور «عثمان رفقي» ناظر الجهادية الأسبق، ودور «راتب باشا» صهر «شريف باشا» فيها، واتضح أن «راتب باشا» حركهم بأوامر من الخديو «إسماعيل» في منفاه بنابولي. آملًا أن تؤدي المؤامرة للإطاحة بولده «توفيق»، وموافقة

(46) مذكرات عرابي، تحقيق وإعداد محمد فريد حجاج

الإنجليز على عودته للسلطة، بعد أن يخلصهم من الثوار العرابيين للأبد[47]، ويعود «توفيق» وليًا لعهده!!

حُكِمَ على الشركس المُدَانين بالتجريد من رتبهم وأنواطهم، ونفيهم لأعالي النيل الأبيض في السودان. ورفعت الوزارة الحكم للخديو ليصدق عليه؛ فإذا الصحف الأجنبية تبدأ حملة ممنهجة على الحكم ووزارة «البارودي» و«عرابي» جميعًا![48].

ثم أوعز القنصل الإنجليزي «مالت» للخديو برفض التصديق على الحكم، فزادت العلاقة توترًا بين الخديو ووزارة الثورة. وأصر «البارودي» على تنفيذ الحكم، وهو ما رآه «توفيق» سلبًا لآخر سلطاته الفعلية في البلاد، فكان أن طمأنه «مالت»، وأوعز إليه أن يصبر وينتظر. وأبرق القنصل البريطاني لوزير خارجيته يقول:

«عند النظر للخطة التي يجب أن يتبعها الخديو، يجب أن نلقي نظرة عامة على الحال كلها، وأن نذكر أن الوزارة الحالية تسعى لتضييق نطاق النفوذ الإنجليزي ـ الفرنسي، وأن نفوذنا كل يوم آخذ في النقصان، وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العلية حتى تكسر شوكة الحكم العسكري التي يرزح القطر تحتها الآن»[49].

---

(47) أحداث المحاكمة ومؤامرة إسماعيل، نقلًا عن رؤية الشيخ «محمد عبده» لها، والتي نقلها بلانت في كتابه التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر.

(48) كتاب مصر الحديثة، اللورد كرومر.

(49) رسالة مالت إلى جرانفيلد، عن كتاب المسألة المصرية لرونستين.

نعود لأمر الأساطيل التي وصلت سواحل الإسكندرية وما جرى بعد وصولها بترتيب بريطاني فرنسي، وإصدار الدولتين بيانًا تقولان فيه أنهما قامتا بتلك «المظاهرة البحرية السلمية» دعمًا لسلطة الخديو الشرعية ضد تمرد الوزارة عليه!! حفاظًا على السلم والأمن في البلاد! وورد البيان لمصر فرفضته الوزارة، ونهض الأبطال «عرابي» و«البارودي» يواجهان المؤامرة الكبرى، ويعدان للأمر عدته، فأرسل «عرابي» للأقاليم يستدعي الاحتياطي، «بجمع عساكر الإمدادية نمرة 2، ونمرة 3 لمواجهة ما يطرأ من حوادث»، وأمر على الفور بترميم الطوابي والحصون العسكرية القريبة من الإسكندرية. وأجابت الوزارة على بيان الدولتين برفض هذا التدخل السافر في شؤون مصر.

وبينما كان «عرابي» في مكتبه بقصر النيل يراجع مع ضباطه أخبار الاستعدادات العسكرية، طلب «سلطان باشا» مقابلته فورًا لأمر هام، فدخل عليه وهو مجتمع بضباطه، وما لبث أن قال:

- لن نقوى على الصمود أمام إنجلترا وفرنسا لو قررتا إنزال العساكر في مصر يا «عرابي» باشا! وما زال فيه فرصة لاتقاء شرور الحرب.

- احنا بنستعد للأسوأ يا باشا، وطبعًا مش هنضرب سفنهم بكرة بالمدفعية رغم إن ده من حقنا، لكننا نضبط أنفسنا لآخر لحظة.

- بصراحة يا باشا، المستر «مالت» كلمني النهارده الصبح، وقال لي إن طلب إنجلترا وفرنسا الوحيد هو .. هو .. خروجك إنت و«علي فهمي» و«عبد العال حلمي» من مصر، للمكان اللي تختاروه، مع احتفاظك براتبك وألقابك طبعًا.

نزل كلامه صاعقة على «عرابي»، فلم يكن «جرانفيل» قد أعلن انحياز «سلطان» لهم في مجلس العموم بعد، ولا كان «بلانت» قد أرسل برقيته! لم تكن صدمة «عرابي» من طلب الإنجليز والفرنسيين، وإنما كانت صدمته من «سلطان» وهو يطلب منه الانصياع للمستعمر. فأجابه «عرابي» وهو يقوم من مقعده ليواجهه:

- وإنت إيه رأيك يا باشا؟

- ده إجراء مؤقت يا باشا وإنت ضحيت كتير علشان...

- وهنا نطق «محمد عبيد بك» الذي كان حاضرًا في الاجتماع بإشهار سيفه وهو يقول:

- لو قبل «عرابي» باشا هذا لما قبلناه نحن، ولو أصر عليه لواجهناه بسيوفنا!!

- آديك سمعت ردنا من «عبيد» بك يا باشا!

هكذا علق «عرابي» وهو ينظر لرفيق سلاحه «محمد عبيد» ممتنًا، فظهر الارتباك على «سلطان» وهو يغادر الغرفة غاضبًا من إشهار السيف بوجهه، ومما اعتبره

تعنتًا من «عرابي»، وفي اليوم التالي، وصلت «الدونمة»[50] البريطانية الفرنسية المشتركة للخديو، تطلب منه إخراج الضباط الثلاثة بناءً على اقتراح رئيس مجلس النواب، فكان نصها:

«إن ممثلي بريطانيا العظمى وفرنسا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث إن العاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب على عرض خروج الضباط المارقين على عطوفتلو محمود سامي باشا رئيس مجلس النظار، إذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد للاضطراب في مصر، فإننا نعلن دعمنا لمطالب سعادته العادلة».

إذنًا .. فقد كان «سلطان» هو من طَلَب ولم يُطلَب منه كما ادعى! وكان جرانفيل صادقًا فيما قاله بمجلس العموم! «سلطان باشا» رئيس مجلس النواب المنتخب، والرجل الذي فتح له سيف «عرابي» الطريق للبرلمان! هاهو اليوم يخون تاريخه ويخون ثورة شعبه، ورفاق ثورته! وهذا هو الجزء المحزن من مسلسل الولس، فلو كان الولس مفهومًا من «توفيق» الذي كانت الثورة ضده منذ اليوم الأول، فهو غير مفهوم ولا معقول من «سلطان»!! العضو المؤسس في الجمعية الوطنية ثم الحزب الوطني! والداعم الأكبر للثورة العرابية! هنا يكمن الألم كل الألم، والأسى كل الأسى! لقد أفسد بريق السلطة وسطوة القوة «سلطانًا» هذا، والكراسي تفسد من

(50) مذكرة باللغة التركية.

كانت همته وكبرياؤه أصغر من كرسيه. فلم يستجب لبرقيتي التي ناشدته فيها بخطورة الوضع ألا يختلف مع «عرابي"، فالإقطاعي أنفت نفسه من زعامة الفلاح في لحظة الحقيقة، وآثر التبعية للإنجليزي الذي تقف بوارجه في الإسكندرية!

لم يكذب الخديو خبرًا، فأجاب بقبول المذكرة المشتركة. ورد «البارودي» باشا بخطاب استعفاء (استقالة) الوزارة احتجاجًا على قبوله للتدخل الأجنبي! فقبلها الخديو سعيدًا، وأبرق للأقاليم يلغي استدعاء الاحتياطي الذي طلبه «عرابي»، وكافة الاستعدادات العسكرية الأخرى، حيث رآها «لا لزوم لها» وفقًا لتعبير برقيته!

هكذا يا سادتي بدأ الولس يكسر فارسنا، كسرًا يليه كسر، وما زال في الكسور بقية! وما زال للحديث بقية.

(8)

تشرشل يحاكم أبا رغال

الزمان: 11 يونيو 1882م

المكان: مقهى «القزاز»، شارع السبع بنات، الإسكندرية

أَعجب أنا البريطاني من قوم بينكم اليوم يا معشر المصريين، ينفون فكرة المؤامرات الغربية! ألا إن المؤامرات شقيقة المصالح، ولقد كان لنا دائمًا مصالح في منطقتكم عامة، وبلدكم خاصة. ولقد قاد بني جلدتي من الإنجليز - للأسف - المؤامرة تلو الأخرى لرعاية تلك المصالح. واليوم أحكي لكم مؤامرة فضحها وكشفها اللورد «راندولف تشرشل»[51]، وفي مجلس العموم البريطاني ذاته عام 1883م، في سياق محاسبته لحكومة رئيس الوزراء «جلادستون» وقنصله في مصر «إدوارد مالت»، فقد اتهم «تشرشل» القنصلَ «مالت» ونائبَه في الإسكندرية المستر «كوكسن»، بالتعاون مع «توفيق» ومحافظ الثغر «عمر لطفي باشا» لتدبير مذبحة الإسكندرية[52]، والتي كانت بداية ما عرف بالحرب الآنجلو - مصرية في حينها. وقد حرص «تشرشل» على كشفها ليس لأنها غير أخلاقية، وإنما لأن أكثر من مائة بريطاني كانوا بين ضحايا الحادثة الذين تجاوز عددهم 350 ضحية.

---

(51) والد رئيس وزراء بريطانيا فيما بعد، ونستون تشرشل.

(52) حقيقة تاريخية استند فيها تشرشل للوقائع المسجلة في مضبطة السياسة الخارجية البريطانية الخاصة بمصر. وقد أوردها الأستاذ محمود الخفيف في كتابه تفصيلًا.

والحق أن «عمر لطفي» هذا يذكرني بمثلكم العربي «أخون من أبي رغال»، فلو كان أبو رغال يستحق منكم الرجم كل عام[53]، فهذا العمر لطفي يستحق الرجم كل يوم وكل ساعة؛ فهو واحد من أحقر صفحات الولس في تاريخكم!

فشل الخديو «توفيق» في تشكيل هيئة نظار جديدة بعدما أعفى وزارة «البارودي»، حتى عندما أعلن أنه سيرأس الوزارة بنفسه، فقد خشي كل السياسيين من قبول الوزارة بينما الأسطول البريطاني والفرنسي يرابطان أمام سواحل الإسكندرية، فهذا انتحار سياسي! وفي الوقت نفسه، أعلن قائد أورطة الإسكندرية «طلبة عصمت باشا» العصيان حتى يعود «عرابي»، فاستجاب الخديو أخيرًا لوساطة الأعيان وشيخ الأزهر والبطريرك، وأعاد «عرابي» ناظرًا للحربية في مساء يوم 28 مايو 1882م. وحرص في فرمان تكليفه أن ينص على مسئولية عرابي عن الأمن الداخلي في البلاد! رغم غرابة هذا بالنسبة لاختصاص وزارة الحربية! فهو من مسؤليات بلوكات النظام!

وتستمر حلقات المؤامرة، ففي الليلة نفسها التي عاد فيها «عرابي» لمنصبه، يرسل «مالت» برقية لوزير خارجيته تقول أن الوطنيين استقووا بعودته، وأنهم يتربصون بالرعايا الأجانب، ويضيف نصًا:

(53) أبو رغال هو العربي الذي قَبِلَ أن يكون دليلًا لجيش أبرهة القادم لهدم الكعبة المشرفة، وقد هلك مع جيش أبرهة، فميز المكيون قبر، وصار؛ يرجمونه كل عام في موسم الحج.

«ربما وقع تصادم في أي وقت بين المسلمين والمسيحيين»[54].

وفي يوم 8 يونيو يتلقى بعض الأجانب المقيمين في الإسكندرية تحذيرًا بأن يبقوا في منازلهم خلال الأيام المقبلة!! فيالها من مصادفات يتبرأ منها القدر، كما يتبرأ من الكارثة التي لحقت بها! ففي يوم 11 يونيو، يستأجر رجل مالطي مكاريًا[55] مصريًا بحماره، ويبقى معه طوال النهار، والغريب أن المالطي لم يذهب لأي مكان غير التنقل من مقهى لآخر حتى استقر على البار المقابل لمقهى القزاز في شارع السبع بنات، قريبًا من قسم اللبان! ثم نقد المكاري قرشًا واحدًا، وعندما احتج المسكين، أخرج المالطي من ملابسه مطواة فطعنه بها ست طعنات قتلته من فوره، وانطلق يجري ليدخل إحدى العمارات القريبة. وعندما اجتمع الأهالي حول جثة القتيل، بدأ إطلاق النيران عليهم من العمارة التي دخلها المالطي! فقتل منهم العشرات، واشتعلت المدينة غضبًا.

والعجيب بعد ذلك، أن يظهر عربان في عدة أماكن متفرقة من المدينة، وفي يدهم نبابيت وغدارات، ويهاجمون كل خواجة تقع عيونهم عليه، ومع ذلك لا يحاول أحد اقتحام العمارة التي أطلقت منها النيران نفسها، ولا يحاول أحدهم قتل المالطي القاتل!

(54) المسألة المصرية لرونستين.

(55) المكاري: هو سائق الحمار المستأجر للركوب وقتئذ.

وفي المساء يبرق «توفيق» إلى «عمر لطفي» محافظ الإسكندرية، ليقول له نصًا:

«إن عرابي قد ضمن الأمن العام ونشر هذا في الجرائد، فإذا نجح في ضمانه وثق به الناس ووثقت به الدول، والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابي أم تخدمنا؟»[56].

هكذا بكل وضوح ووقاحة!! ولهذا، شهد أحد المهندسين الإنجليز[57] أن الشرطة التي كانت تحت إمرة المحافظ قد شاركت في قتل الأجانب! كما شهد الشيخ «محمد عبده»، أن الدهماء كانوا يدافعون عن أنفسهم بأن المحافظ هو من كان يأمرهم بمهاجمة الأجانب دفاعًا عن بلدهم[58]!.

وهكذا أُحْكِمَتْ المؤامرة، وتمت حلقاتها بالأسطول البريطاني يرسل مذكرة يطلب فيها إخلاء ميناء الإسكندرية من مدفعية الميدان، لتسهيل نزول العساكر البريطانية للثغر، حتى يسيطروا على الفتنة. فيرفض «عرابي» المذكرة، وتتحرك أورطة المنطقة الغربية من الجيش المصري، لتسيطر على الأحداث في المدينة خلال ساعات، ومع ذلك يصدر قائد الأسطول البريطاني إنذارًا جديدًا!

وتبدأ مرحلة صب النيران.

---

(56) ضمن ما عرضه اللورد تشرشل في اتهامه، وجدير بالذكر أن عمر لطفي باشا ليس هو نفسه عمر لطفي بك الذي تسمى باسمه الشوارع والمدارس.

(57) المصدر السابق نفسه.

(58) المسألة المصرية لرونستين، وتقرير أحمد رفعت بك.

(9)

ملح على جراح الوطن

الزمان: 11 يوليو 1882م

المكان: شواطئ الإسكندرية

أنا السيف عدت إليكم، لأحكي لكم صفحة أخرى من صفحات مجدكم، والحق أني أرثي لصاحبتي العصا، ولصاحبي المستشرق الشريف «بلانت"، فقد قُدِّرَ على الأُولى أن تجتر صفحات الجحود، حتى تفجر خشبها بالدمع. وقُدِّرَ على الثاني أن يقلب معكم صفحات الولس وأهله من مصريين وأجانب، حتى ضاق صدره. أما أنا، فما أوفر حظي بين الجماد والبشر!! أنا من عُقِدَت بنصلي الكرامة، وجعلت تحت ظلي الأمجاد! اليوم أحكي لكم ملحمة الختام، لمجد فارسنا الهمام، ملحمة كانت في الصمود وفي الانكسار، ولو كان «شوقي» قد غمط صاحبنا حقه يوم قال:

صغار في الذهاب وفي الإياب

أهذا كل شأنك يا عرابي

فأنا الجماد أنطق بالحق شعرًا، فأقول:

ملحمةٌ في الصمودِ والانكسارِ

هذا جليل شأنك يا أبا الثوارِ

كان السيل قد بلغ مداه، وبلغ بالمستعمر الغرور والصلف أن يطلب «سيمور» قائد أسطولهم وقف ترميمات كان «عرابي» قد أمر بها من قبل في طوابي المقس، وقايتباي، والعجمي، وطابية صالح! ويطلب إنزال المدافع المنصوبة فوق هذه القلاع والموجهة ناحية البحر، «لما تحمله من تهديد للرعايا الأجانب في الإسكندرية»! وإلا قام الأسطول البريطاني بقصف الطوابي المصرية. فاعجبوا معي من حجة الذئب والحمل في أكثر صورها فجاجة! مدافع موجهة للبحر تهدد الأجانب القاطنين خلفها! وقصف المدينة هو ما يجعل الأمن والسلم يعودان لربوعها!

طلب صاحبي الاجتماع مع الخديو للرد على ذلك التهديد، وطلب حضور «درويش باشا» الذي كان الباب العالي قد أرسله لتحري الأوضاع في مصر، وفي الاجتماع - أمام مندوب السلطان - استنكر الخديو طلبات الآدميرال «سيمور» قائد الحملة البحرية البريطانية، بل تصنع الحماس، وهو يوافق «عرابي» على رفض الإهانة الممثلة في طلب الإنجليز إنزال المدافع الساحلية، فمدافع الطوابي تلك ظلت في مواقعها منذ عهد الباشا الكبير! وأخذ «توفيق» يمعن في حماسته التي اصطنعها، وهو يقول أنه سيحمل البندقية بنفسه ويتقدم الجنود لو اعتدت بريطانيا على مصر[59]، وسأروي لكم بعد قليل

(59) وفقًا لتقرير عرابي الذي خطه بيده ليستخدمه محاميه في الدفاع عنه أمام المحكمة الصورية بعد ذلك.

كيف تقدم الخديو الجند فعلًا .. ولكن أي جند؟ ذلك هو السؤال المثير .. والمؤسف!

في نهاية الاجتماع كانت الأوامر الوحيدة التي أصر عليها الخديو هي الانتظار حتى يوجه الأسطول البريطاني ضربته الأولى كاملة للطوابي المصرية، وكانت ذريعته أن يكون الإنجليز هم المعتدين أمام العالم عامة، وأمام فرنسا خاصة، ففرنسا كانت قد سحبت أسطولها وانسحبت من المعارك عندما فطنت للخطة البريطانية، فأجابه «عرابي» معترضًا:

- أفندينا: نحن نعرف حقيقة القلاع والطوابي الساحلية وما بها من سلاح، فرصتنا الوحيدة في إصابة بعض قطع أسطولهم أن تبدأ مدفعية الطوابي في الرد مع أول «كلة»[60] تنزل على الساحل المصري، لو صبرنا أكثر من كدة الطوابي هتنهار بمن فيها وما فيها!

- العسكر لا يعرفون في ضرورات السياسة. لن نضرب قبل أن نثبت عليهم العدوان، هذه أوامرنا يا باشا! ولن أقبل أي إخلال بها.

ازدرد الفارس ريقه وهو يكظم غيظه من هذا الرأي العاطل، لكنه ضبط نفسه لأنه كره أي انقسام داخلي في وقت تستعد فيه البلاد لمواجهة حرب مع دولة كبرى، بل أكبر الدول في زمانها! ولم يعرف وقتها أن الانقسام

(60) الكلة وجمعها كلل كانت الكلمة المستخدمة وقتها للتعبير عن دانات المدافع.

واقع لا محالة، ولم يعرف طبعًا أن الخديو تحرك فور انتهاء الاجتماع سرًا نحو الإسكندرية، ونزل في قصر الرمل، ثم أرسل خطابه لقائد الأسطول «بوشامب سيمور»، يدعوه إلى قصره[61]!

لم تكن قوات «عرابي» محدودة الإمكانيات والسلاح فقط، بل كانت محدودة العدد كذلك. حيث لم تتجاوز ستة عشر ألفًا، بينما حشدت بريطانيا أربعة وعشرين ألف جندي في جزيرة مالطة، بقيادة «ويلزلي»، فضلًا عن ستة آلاف جندي هندي تقدموا بالبواخر عبر البحر الأحمر نحو قناة السويس.

آه ما أعجب مشاعري نحو تلك الذكريات! أنا السيف التواق للحظات الكرامة والمجد، فقد ذقت تلك اللحظات الماجدة كما ذقت معها لحظات الخذلان والخسران! ولكن، أليس حسبي وحسب فارسي أننا واجهنا قوات أكبر دولة في زماننا؟

كنت في قرابي المعلق بقايش «عرابي» عندما اجتمع بهيئة أركان الحرب وأمراء الجند، وشاورهم في الخطة قدر ما سمحت به العجلة والظرف الحرج، ثم أعاد عليهم ما توافقوا عليه وهم يتحلقون حول خريطة خديوية مصر[62]:

---

(61) حقيقة ذكرت في كل المصادر التي تناولت أحداث الحرب ومنها تقرير عرابي الذي كتبه لمحاميه برودلي، وكتاب التاريخ السري لبلانت.

(62) كان اسم الدولة المصرية بعهد محمد علي هو «ولاية مصر»، ثم أصبح خديوية مصر على عهد إسماعيل، ثم سلطنة مصر على عهد حسين كامل، ثم «المملكة المصرية» بعهد فؤاد الأول، ثم جمهورية مصر العربية لأول مرة مع ثورة يوليو

- سيبقى آلاي الحرس الخديوي هنا في العاصمة، بقيادة «علي بك فهمي»، بينما تنطلق الأورطة الأولى بقيادة «طلبة باشا عصمت» إلى كفر الدوار لترابط خارجها، وتنطلق الأورطة الثانية بقيادة «محمد بك عبيد» نحو قناة السويس عبر الشرقية، فالبواخر التي تحمل الهنود بقيادة الجنرال «لو» توشك على الوصول للقناة، وكذلك وصلت للإسكندرية البواخر التي كانت مرابطة في جزيرة مالطة بقيادة الجنرال «جارنيت ويلزلي» شخصيًا. والله المستعان على ما يصفون.

فك «عرابي» قرابي من القايش المقصب، ووضعني فوق الخريطة، وهو يقول:

- بالسيف والبندق سندافع عن المحروسة يا بكوات، مش في إمكاننا مع الأسف الدفاع عن كل أرض الخديوية، لكن مهمتنا ألا يصل المستعمر للمحروسة وفي كتفنا ذراع نقاتل به! حتى لو سددنا طريقه من الشرق والغرب بجثثنا. والله أكبر يا أمراء الجند!

كبر الجميع، وانفض الجمع بعد أن ودعوا «عرابي»، والذي لبث في مكتبه بقصر النيل ريثما كتب خطابًا إلى «فرديناند دليسبس» مدير كوبانية قنال السويس، يخبره فيه بأن أورطة عساكر مصرية بقيادة «محمد عبيد بك» قد تحركت نحو مدخل القناة من جهة السويس، وأنه أصدر إليها التعليمات بأن تغلق المجرى الملاحي

للقناة، لو سمح «دليسبس» للأسطول البريطاني الذي يحمل العساكر الهندية والبنغالية بالعبور فيها، وذلك بضرب أول سفينة وإغراقها لتغلق المجرى الملاحي، وأرسل الخطاب مع مخصوص لدليسبس. ثم تحرك بعدها مباشرة لمحطة مصر لركوب الوابور إلى الإسكندرية، فقد كان تقديره - والذي أصاب فيه - أن الجهة الغربية ستكون محاولتهم الأولى.

وعندما كان القطار يدخل «محطة مصر» في الإسكندرية، رأى «عرابي» السيد «عبد الله النديم» وهو يقف على رصيف المحطة، بقفطانه وكاكولته[63] الداكنة، وعمامته السوداء التي كان شديد الاعتزاز بها، حيث كان شريفًا حسنيًا[64]، رأى فارسنا صديقه «النديم» - الذي آزر حركته بقلمه وصوته منذ بدايتها - يقطب الجبين على غير عادته وهو يلوح له بكفيه. هل هي حالة التوتر في البلاد أم لأمر آخر؟ لقد عرفه مرحًا حتى في أحلك الظروف!

فور نزوله من القطار وبعد عناق الأحباب أخذ «النديم» بيده نحو عربة حنطور كانت تنتظرهما عند باب المحطة، وفور ركوبهما نطق «النديم»:

- جيت أبلغك يا أحمد باشا بأمر خطير، وعارف ضيق وقتك فقلت أبلغك واحنا في طريقنا للخوشلاق.

(63) الكاكولة زي أزهري تقليدي مخالف للجبة المشهورة.

(64) حقيقة، وكانت عادة اعتمار السادة الأشراف بعمامة سوداء ما زلت سائدة في كافة الأقطار العربية.

- خير يا سي عبد الله؟

- ماهوش خير أبدًا. الخديو هنا في قصر الرمل من أول امبارح، والمراسيل لا تنقطع بينه وبين مركب «سيمور». وآخرتها فيه جندي شركسي من حرس الخديو الخصوصي منتظرك في خشلاق الداماس ومعاه رسالة رفض يسيبها لأي حد من الضباط!

- قصدك يعني.

- عملها يا «أحمد»، عملها ابن القديمة!

كان «النديم» حار الدماء مندفع اللسان على الدوام. سكت «عرابي» للحظات ثم قال:

- حتى لو كان عملها ونوى يطاطي للإنجليز، احنا مش هنطاطي يا سي «عبد الله»، ولو فيها رقابينا. خليك معايا لما نوصل الخوشلاق، ونشوف الموضوع.

مع صديقه «النديم» شرقاوي المولد، سكندري النشأة، عادت لهجة «عرابي» الفلاح لسليقتها دون أن يشعر. فقد كان الوجهاء والمتعلمون يتحدثون لغة ثالثة أكثرها من الفصحى، بينما يتحدث الفلاحون وأولاد البلد عاميتهم سريعة التطور والتحور.

فور وصولهم لطابية داماس والخوشلاق المحيط بها، تسلم «عرابي» الرسالة من الجندي الشركسي وصرفه، وعندما فض ختمها لم يجد فيها أكثر من تأكيد الخديو

على أوامره بألا يبدأ مدفع مصري بالضرب حتى تنشط المدافع الإنجليزية. أخبر «النديم» بالمحتوى وهو يقول:

- قلقتني يا سي «عبد الله»، بيأكد على موضوع اتكلمنا فيه بالفعل قبل كدة.

- برضو ابن قديمة، أنا ابن حِنْت يا «أحمد» باشا وميدخلش الكلام ده ذمتي بنص افرنك. ده أنا كنت مخلي واحد من شبيبة الجرنال واقف له تحت سراية الرمل ديدبان، وفيه ست مراسيل راحت وجت بينه وبين مركب الأميرالاي الإنجليزي. كل ده ومعندوش حاجة يقولها غير الكلمتين دول لناظر الجهادية! طبخوها ولاد الهرمة وبكرة تقول «النديم» قال.

- هنشوف يا سي «عبد الله»، غدًا لناظره قريب!

وجاء الغد الصعب المرتقب.

مع أول ضوء بدأت مركب الآدميرال «سيمور» بضرب الكلل على الطوابي، ثم تبعتها بقية البواخر، وتركز الضرب على طابية داماس التي بها «عرابي» كأن هناك من حددها لهم! وبدأت مدافع طابيتي قايتباي وصالح ترد بالضرب على المراكب، فقد كانت بقية الطوابي قد تهدمت مع الضربة الأولى. في نهاية النهار الكئيب كانت المدافع المصرية قد سكتت تمامًا بعد أن تهدمت الطوابي. وتوقف القتال بحلول الظلام وفقًا للعرف العسكري وقتها، فانتقل «عرابي» ومعه «النديم» الذي

رفض أن يفارقه لخوشلاق رأس التين، ولم تمضِ ساعتان حتى كان رسول من الخديو يقف بباب «عرابي» ومعه رسالة محتواها:

«توقف فورًا عن القتال وأحضر لدينا في سراي الرمل للشورى».

- كانوا بيهاودوك بس يا باشا لحد ما يبدأوا الضرب، احتياط بس أحسن طوبجي من الطوبجية يصيب مركب من مراكب الإنجليز لا سمح الله، ودلوقت عاوزينك تسلم لهم.

تغضن وجه «عرابي» وهو يقوم مناديًا جندي المراسلة ويقول له:

- أرسل للضباط يسحبوا العساكر من باب شرق ويتحركوا بيهم جهة وابور المياه، وأنا هقابلهم هناك علشان نتحرك لكفر الدوار.

- وإسكندرية يا «عرابي»؟

قالها «النديم» جزعًا على مدينته، فأجابه عرابي:

- الدفاع عن إسكندرية مستحيل على البر، إسكندرية شريط مفرود على الساحل، الدفاع هيكون في كفر الدوار علشان نحمي المحروسة، المحروسة دلوقت هي شرفنا كلنا يا «عبد الله»، معلش، عارف معزتها في قلبك يا اسكندراني، وفي قلوبنا كلنا. اجهز وياله بينا.

هكذا اكتفى «عرابي» بأقل الخسائر في الإسكندرية ولم يعاند القدر، وتمترس مع العساكر في كفر الدوار ليدافع عنها. وكان «طلبة عصمت باشا» ينتظره هناك ومعه مدفعية الميدان، أما الخديو فقد استقبل الأدميرال الإنجليزي في قصره بالرمل بعد انسحاب العرابيين استقباله لقائده المنتصر، ثم انتقل إلى قصر «راس التين» في حراسة صفين من العسكر الإنجليزي! في مشهد مَثَّل قاع الخيانة!

وجاء دور المصريين في رد الهزيمة في نحور الإنجليز. فقد بدأت محاولات الغزاة للزحف برًا نحو القاهرة، وعساكر «عرابي»، والبطل الهمام «طلبة عصمت باشا» لهم بالمرصاد، يناوشونهم عند كل محاولة، وبعد قرابة الشهرين، هجم الكولونيل «آليسون» بجنوده على كفر الدوار، ودارت معركة شرسة طوال اليوم، كان النصر فيها حليفًا للمصريين، وأُسِرَ من الإنجليز قُرابة الثلاثمائة جندي، ناهيك بمن قتل ومن أصيب، وانسحب الغزاة وقوات «عرابي» تطاردهم نحو الثغر السكندري من جديد، حتى إنهم انسحبوا بالقوارب يلوذون ببواخرهم.

لم يمهل الخونة «عرابي» طويلًا ليفرح بنصره في معركة كفر الدوار الباسلة. ففي اليوم التالي جاءه الخبر أن الأسطول الإنجليزي قد انسحبت معظم قطعه من أمام السواحل السكندرية وتتجه شرقًا، نحو قناة السويس. فأرسل خطابًا من فوره لمحمد عبيد بك قال فيه:

«الخطر صار معكوسًا، راقب مدخل القناة الشمالي، قوات الهنود لن تلحق بنا هنا، ولكن العساكر التي كانت في الإسكندرية تنسحب نحو الشرق، وتقصد العبور نحو السويس ليصلوا منها إلى القاهرة، وسوف أتحرك بالجند نحوك بعد غد».

في اليوم التالي، وصله خطاب من «محمد عبيد بك»، لم يكن ردًا على رسالته التي لم يستلمها «عبيد» بعد، ولكنه كان الخطاب الذي جرح معنويات القائد المنتصر في معركة كفر الدوار جرحًا نافذًا أليمًا، فقد جاء فيه أن السلطان «عبد الحميد الثاني» أصدر نطقًا ساميًا بأن «عرابي» مارق خارج عن الدين وعرض بلاد المسلمين للدمار والخراب باستفار الأعداء. فكانت هذه طعنة كبيرة، وجرحًا كبيرًا لمصر من قبل «السلطان الشرعي» للبلاد! لكن الملح الذي ألهب ذلك الجرح، كان الخبر الثاني الذي حمله الخطاب، عن «محمد سلطان باشا» رئيس مجلس النواب، حيث أكد له «عبيد» أن «سلطان» كان يوزع الذهب على قبائل العرب حتى لا تتعاون مع الجيش المصري، وقد استمال من مشايخ العرب بالفعل كلًا من «سعيد الطحاوي» و«محمد البقلي»، وأنه أهدى صندوقًا من السلاح المذهب لقائد المراكب الهندية «لو»، ورشى بعض المعممين ليخطبوا في الناس بكفر عرابي ومروقه من طاعة أمير المؤمنين! صاح «عرابي» وقد ركز قائمي في الأرض يستند عليَّ، وقد كان يتهاوى:

- ليه؟ محمد سلطان ليه؟

- والنايب «عبد المجيد البيطاش» سمعت إمبارح إنه كل يوم رايح على مراكب الإنجليز. الكفة مالت ومال معاها أهل الهوى يا باشا.

- لكن «سلطان» يوصل لكده؟ وسنين النضال من أجل الدستور؟! كلها كانت ليه؟

- ده نضال الوجاهة، نضال المطمئن يا باشا، يعني هو حد كان يقدر ييجي ناحية «سلطان باشا» بعزوته وثروته دي كلها زي ما حبسوك إنت أيام قصر النيل؟ وكنت هتتقدم لمحاكمة عسكرية كمان؟

هكذا علق «النديم»، ثم وجد أنه يضيف المزيد لآلام صديقه بهذا الحديث، فحاول مواساته بأخبار جيدة وهو يقول:

- عرفت النهارده إن الشيخ «حسن العدوي» اجتمع مع شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط، وبيجهزوا لعزل «توفيق» وإعلان دعمهم ليك يا بطل. معلش، البطن قلابة، واللي خانوك دول وساخة بطن البلد يا همام. لكنها برضو ملانة رجالة وفوارس.

التفت نحوه «عرابي» متطلعًا لما يقول من خبر يواسيه، كان يريد طبيبًا بعد أن ألهب ملح الخيانة جرح العدوان! ولم تكن تلك آخر الخيانات، فما زال في كأس الولس بقية!

السيد عبد الله النديم

(10)

أول جمهورية مصرية

الزمان: 24 يوليو 1882م

المكان: التل الكبير، الإسماعيلية

هل توقعتم أن يحدثكم السيف بفصول ختام الملحمة العرابية؟ لا يا أحبتي، أنا العصا عدت إليكم، لأحكي تلك الفصول التي سمعتها من صاحبي الشيخ وهو يجتر آلامها في المنفى صباح مساء، أما السيف فلم يكن له فيها نصيب؛ إذ لم تمكن الخيانة صاحبي من الوصول لسيفه، وداهمته قبل أن يشهره بوجه عدوه، أو يرفعه ليوجه به جنده! لم يستحِ الإنجليز من خسة الغدر حيال قائد أكرم أسراهم في كفر الدوار والقصاصين، حتى إن والدة أحد الضباط الأسرى وهو «دادلي دوشير» قد أرسلت تلغرافًا تحييه لما أكرم به مثوى ولدها في أسره، ولأنه سمح له بإرسال برقية لأمه[65]!

لكني قبل الحديث عن التل الكبير، سأحدثكم اليوم عن صفحة رائعة من صفحات تاريخكم، صفحة أول محاولة مصرية لإعلان الجمهورية، والتي سماها «عرابي» في تقريره لمحاميه «الجمهورية المؤقتة»، وواقع الحال أنه لو قدر لعرابي الانتصار لصارت جمهورية دائمة!

(65) حقيقة استخدمها محامي «عرابي» في الدفاع عنه.

في يوليو - شهر الدماء الحارة في عروق المصريين، وشهر الانتفاض ضد الخونة والخيانة بكل أشكالها - اجتمع خمسمائة مصري من أهل الحل والعقد وكبار القوم لأمر عظيم، فقد خان الخديو «توفيق» جيشه، وأصدر فرمانًا في 20 يوليو بعزل ناظر الحربية «أحمد عرابي باشا»، الذي كانت كل جريمته بنظر الخديو هي رفض الذل، ومواجهة المستعمر، بل أوغل الخديو في الخيانة، فاستقبل قائد الأسطول الغازي «سيمور» في قصر الرمل، وانتقل في حراسة الجنود الإنجليز لسراي رأس التين! هنا، وفي غضون يومين من فرمان الخيانة، ثارت الحمية في عروق المصريين، وبينما كان «عرابي» يعيد ترتيب قواته في كفر الدوار ليدافع عن المحروسة، صاح فضلاء من السادة الأشراف مثل السيد «السادات»، والسيد «البكري»، وكانا على اتصال دائم بالسيد «عبد الله النديم»، فاستجاب لصيحتهما المصريون، واجتمع معهم شيخ الأزهر، وبطريرك الأقباط، والعُمَد ومشايخ البلاد، وكبار التجار والصناع، فضلًا عن ثلاثة من أمراء أسرة محمد علي، وكبار موظفي الدولة مثل وكيل الجهادية «يعقوب سامي باشا»، ووكيل الداخلية «حسين باشا»، ووكيل الحقانية «بطرس باشا». واتخذ الجمع تلك القرارات التي كانت بمثابة إعلان لأول جمهورية مصرية، فقد قرر المجتمعون:

- عزل الخديو «توفيق» الذي خان أمانة السلطة، وانبطح للمستعمر.

- إلغاء فرمان الخديو بعزل «عرابي»، وتكليف ناظر الحربية بصد العدوان.
- إعلان الجهاد في أنحاء القُطر المصري، وفتح باب التطوع للجهادية، والتبرع لميرة الجيش وإعداده.
- إرسال برقية للسلطان العثماني تخطره بعزل توفيق، وأن المجلس المنعقد، والموقع على البيان، هو المتصرف في شؤون مصر .. مجرد إخطار! فلا شرعية تعلو على حق أبناء مصر في بلدهم! فهو الحق الأصيل وما عداه طارئ.

خمسمائة مصري فحسب اتخذوا تلك القرارات بوصفهم أهل الحل والعقد، ووقعوا البيان[66]، لتعلن تلك النخبة الفاضلة سيادة أبناء مصر على أراضيها. وقد يقول قائل أن هؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم، فنقول له: إن أرقام التبرعات لديوان الجهادية وتطوع المصريين للقتال، والمثبتة في البرقيات الرسمية، تكذب زعمك هذا، فقد تبرع الشعب المرهق اقتصاديًا بسبب قانون تصفية الديون بثمانية آلاف فرس وبغل، وأربعة آلاف جمل، فضلًا عن مئات من رؤوس الماشية وآلاف الأغنام وآلاف من أرادب القمح والشعير. أما الرقم الذي يقطع الجدل فهو عدد المتطوعين للقتال والذي بلغ مائة ألف مصري، لم يمكن قبول تطوعهم لعدم توافر السلاح بهذه الأعداد الكبيرة، حيث كان قوام الجيش وقتها 18000 مقاتل فقط.

(66) عدا شيخ الأزهر الذي رفض التوقيع بيده خوفًا وأعطاهم خاتمه ليضعوه على البيان، ليدعي بعد ذلك أنه أكره عليه!!

لكم أن تعرفوا بَنِيَّ مصر أن هذا الإعلان كان يغير وجه تاريخكم المعاصر، لو قُدِّرَ للثورة الانتصار، ولو لم تنتهِ وينتهِ معها المجلس والجمهورية بعد أقل من شهرين! كان يغير وجه مصرنا لو لم يكسر الولس «عرابي»، ولو لم ينشق عليه من كان ثائرًا إلى جانبه بالأمس مثل «محمد سلطان» باشا، لأنه نقم على القائد الثائر محبة الناس له! ولو لم يغدر به من كان جنديًا تحت قيادته مثل «علي خنفس» الذي أغراه الذهب، ومن كان يبدي الولاء والمساعدة وهو يخفي المكايدة مثل «سعيد الطحاوي»، هؤلاء وأمثالهم عرقلوا طفرة تاريخكم بالأمس، ولعل أشباههم من السلاطين والخنافس والطحاوية يعرقلونها حتى يومكم هذا، وفيكم سماعون لهم في كل حين!

(11)

ملحمة الآلام

الزمان: 13 سبتمبر 1882م

المكان: التل الكبير، الإسماعيلية

اليوم أصل بكم لختام الحديث وتمام الكلام، في أمر فارسي الذي ترجل، وصار حين عرفته في منفاه عجوزًا يتوكأ عليَّ ليمشي. اليوم أحدثكم عن ملحمة آلامه، وبعض الآلام ملاحم، وقد تغدو آلامنا أقيم ما فينا. وأكبر ملاحم «عرابي» هي ملحمة الألم التي عاشها في التل الكبير، والتي عشتُها معه في شيخوخته بعد حدوثها بسنين طوال، فكل الجراح تطيب ويبقى جرح الغدر نافذًا نازفًا.

حدثكم السيف كيف صمد جيش مصر أمام الغزو الإنجليزي غرب البلاد لأكثر من خمسين يومًا كاملة؛ منع خلالها جيش العدو من التقدم نحو القاهرة عبر صحراء البحيرة، وكيف خاض معركة كفر الدوار ببسالة وشرف فاندحر العدو أمامه، وقرر العدو الانسحاب شرقًا بمراكبه نحو قناة السويس، ليهاجم القاهرة من جهة الشرق. وكان «دليسبس» قد ادعى أن الإنجليز لن يستخدموا قناة السويس في العدوان حتى لا يعرضوا الملاحة فيها للخطر، وتعهد بعدم السماح بدخول أي بوارج حربية لو حاولوا، مدعيًا أن شركة القناة على الحياد نظرًا لما بين فرنسا وبريطانيا من

خلاف، وقد أضاف انسحاب الأسطول الفرنسي ورفضه المشاركة في ضرب الإسكندرية مصداقية لما قاله «دليسبس»، فصدقه «محمد عبيد بك» و«عرابي»، وكان هذا أكبر ما ارتكبه صاحبي من أخطاء، وأكثر ما رأيتُه يعض البنان عليه من الندم، وينقر جبهته بي - أنا عصاه - من الحسرة، فلو أغلق القناة لتعثر الغزو كثيرًا!

عندما ظهر غدر «دليسبس»، حاول المهندس البطل «محمود فهمي باشا» وضع متاريس في مجرى القناة لتعطيل وصول السفن للإسماعيلية، لكنه فشل ووقع في الأسر. وكان صاحبي قد ترك فرقة «طلبة عصمت باشا» في كفر الدوار، وتحرك بمعظم عسكره نحو الإسماعيلية، لينضم إلى فرقة «محمد عبيد باشا» المرابطة بها. وأمر بتحرك الآلاي الأول من البيادة[67] بقيادة «علي فهمي باشا» من المحروسة نحو التل الكبير وهو يقول:

- هناك .. في التل الكبير سوف يُحدد مصير المعركة .. ومعركة المصير .. لمصر كلها.

كانت الخسة قد وصلت برئيس مجلس النواب «محمد سلطان باشا» أن يتحرك بنفسه مع عساكر الإنجليز، بعد أن استقبلهم على شاطئ الإسماعيلية، وأهدى قائدهم «لو» سيفًا ذهبيًا! وقد بلغت وقاحته أن خطب في بعض بدو الصحراء يقول:

(67) المشاة في زمن كان الجيش فيه مقسم إلى البيادة (المشاة) والطوبجية (المدفعية) والسواري (الفرسان).

قالت العصا وقال السيف

- يا معشر المسلمين، هذه العساكر الإنكليزية قد تكبدت عناء السفر، لتأتي إلى بلادنا نصرة للسلطان أمير المؤمنين ضد العساكر التي تمردت على حضرته السَّنية، فرحِّبوا بهم وأكرِموا وفادتهم.

في اليوم التاسع من سبتمبر وصل عبر قناة السويس لواء من الرماحة البنغال ولواء من خيالة الهنود، فاتضح لعرابي أن مدد العدو لن ينفد، ولن يتمكن من المواجهة مهما حاول ما دامت القناة مفتوحة لوصول المدد من الشمال والجنوب، فهاجم الجيش المصري قوات الإنجليز هجومًا مفاجئًا في 10 سبتمبر 1882م، أصيب فيه الكومندان «راشد حسني باشا»، و«علي فهمي باشا» قائد آلاي البيادة الأول، وأبلى الجيش المصري بلاءً حسنًا، وأصاب من العدو خسائر بالغة، لكن وصول لواء المرتفعات ولواء الحرس السابع في مساء ذلك اليوم غيَّر دفة المعركة، وانسحب الجيش المصري عائدًا لقواعده في التل الكبير قبالة الإسماعيلية.

ثم تأتي الليلة الليلاء، ليلة 13 سبتمبر، ويكون «محمد سلطان» قد قام بدوره في الغدر والخسة للنهاية، وكون شبكة الانكسار داخل معسكر «عرابي»، فبعد صلاة العشاء، يدخل أحد مشايخ العرب وهو «سعيد الطحاوي» إلى خيمة «عرابي» ويقول له أنه آتٍ لتوه من معسكر الإنجليز، وأنهم يحتفلون الليلة بأحد أعيادهم. ويخرج من عنده ليشيع الخبر بين الجنود المناوبين

للحراسة، ويعطي الإشارة المتفق عليها للقائد «علي يوسف» الشهير بخنفس، والذي باع وطنه بألفي جنيه ذهبي[68]، ليتحرك هذا بجنود مقدمة الجيش، ويتخذ موقعًا بعيدًا عن المعسكر في هدوء الليل، ويبدأ القائد العام البريطاني «ولزلي» نفسه في الزحف والمدفعية في مقدمة قواته، ويبدأ القصف.

كان «عرابي» في خيمته يقرأ أوراد الليل، وقد خلع ملابس الميدان، حين وقعت إحدى الكلل في قلب خيمته لتشعل بها النار، فطار الفارس إلى فرسه، وقفز فوقها، وهاله المشهد الذي يراه، فقد اختلط حابل الجند بنابلهم، بفعل خيانة بعض الضباط وذعر آخرين، بينما ثبت البطل «محمد عبيد» في المعركة يجالد العدو جلاد الأبطال حتى فقد ذراعيه، ثم سقط شهيدًا. وثبت قائد الطوبجية «حسن رضوان» يقصف الجند المعتدين، وكان الفضل في معظم خسائر الإنجليز له في ذلك اليوم[69]، حتى سقط جريحًا، فتفرقت جنوده وتوقفت نيرانه!

كما ثبت في الميدان اثنان من آليات البيادة بقيادة «أحمد فرج بك» و«عبد القادر عبد الصمد بك»، حتى أحاط بهما لواء المرتفعات البريطاني من اليسار، ولواء الحرس السابع من الخلف، فضلًا عن قوات «ولزلي» من الأمام، وبقي «عرابي» فوق فرسه يصرخ في الجنود ويحاول

(68) واشتكى كما يشير كتاب بلانت بعد ذلك أن سلطان باشا حصل على عشرة آلاف، وهذا دليل أن الغنى ليس قرينًا لعفة اليد أبدًا.

(69) سمح له ولزلي الاحتفاظ بسيفه وهو جريح تقديرًا لشجاعته.

استعادة من شرع في الفرار منهم، حتى انهزم الجيش المصري تمامًا في السادسة صباحًا، بعد خمس ساعات كاملة من القتال الليلي. وهنا، لوى خادم «عرابي» عِنان فرسه وهو يرجوه أن ينجو بنفسه ليدافع عن المحروسة.

حاول «عرابي» أن يستعيد حشد الجيش عند بلبيس ليصد الهجوم القادم على المحروسة من الشرق، لكنه فشل، وفهم أن أي مغامرة حربية ستدمر اللواء الوحيد الباقي من جيش مصر وهو آلاي العباسية، فطلب من قائده أن يرفع الرايات البيضاء عند قدوم عسكر الإنجليز، وذهب ينتظرهم في مكتبه بقصر النيل، حتى جاءوا فقبضوا عليه!

وتوالت المحن على البطل، وها هو يقف أمام قضاته، ليحكموا عليه بالإعدام رغم المحامي البريطاني الذي جلبوه له، ثم يخفف الحكم للنفي! تخفيف من موت سريع إلى موت بطيء، ومن عذاب ساعة لعذاب عُمْر!

وها هو يشهد في أثناء محاكمته كل رفاقه وهم يعتذرون عن الثورة والخروج عن طاعة الخديو، خوفًا وطمعًا، فالأبطال قد ماتوا أو جرحوا أو أسروا هناك على رمال التل الكبير، ولم يبقَ على الشجر إلا شرار الطير! لم يرفض الاعتذار من الأحياء إلا «علي الروبي بك»!

وها هو بطلنا يعرف أن «الخديو» المخلوع عاد لقصره موفورًا في حراسة جند الإنجليز، ووقف تحية للسلام الملكي البريطاني على أبواب قصره، وبجواره «شريف باشا» أبو الدستور!!

وها هو أخيرًا يركب البحر نحو منفاه البعيد، وينظر بعين الأسى لشاطئ مصر وهو يسألها:

- بكم باعوك يا مصر؟ بكم باعوا أنين السواقي على رؤوس الغيطان؟ بكم باعوا ولادة الشمس من بحر الإسكندرية؟ بكم باعوا البغال التي تحفظ طرقات القرى؟ بكم باعوا كرم الضيافة حول نيران البادية؟ بكم باعوا دفء الأفران الطينية في ليالي الشتاء؟ بكم باعوا أيام البسطاء .. شديدة الثراء؟ بكم باعوا كل هذا؟

هكذا .. تحدث الفارس بينما الشاطئ يبعد عن عينيه كل لحظة والباخرة تشق الماء، فتذوق عيناه لوعة الفطام عن رؤياك يا مصر.

** تمت **

الفهرس

1. يوم بكت فيه العصا 11

2. باب هريه رزنه 19

3. وتحدث السيف 29

4. هز الهلال يا عرابي 41

5. حكاية الفارس والنطع 51

6. استقالة الباشا 63

7. حكايات الولس 79

8. تشرشل يحاكم أبا رغال 87

9. ملح على جراح الوطن 91

10. أول جمهورية مصرية 105

11. ملحمة الآلام 109